دار الشؤون الثقافية العامة

الطريق الى الملح

رواية

عبد الكريم العامري

الطريق الى الملح

رواية

عبد الكريم العامري

الطبعة الثانية

البصرة 2023

اصدارالطبعة الأولى: دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 936 لسنة 2002
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة/بغداد 2002
تصميم غلاف ط1: نهلة محمد عبد الوهاب
لوحة غلاف ط1 للفنان صدام الجميلي
بغداد الطبعة الأولى 2002- الطبعة الثانية 2023

اهداء:

الى الأرواح الطاهرة التي ما زالت تحلق في فضاءات الفاو

(1)

الطريق الممتدة الى الفاو تبدو كخيط متعرج طويل يخترق المدى ويفصل ما بين عالمين متنافرين. قد يوهمك المكان، فثمة حياة في مكان ما هنا. ربما فيما مضى او الآن، لكنك – بالتأكيد- سوف تستسلم للسكون المخيف الذي خلفته جذوع النخل المقطوعة الرؤوس، او كثبان الملح المتلاصقة تحت أشعة شمس آب، أو مواضع الجنود المهجورة وتلال الرصد والسواتر الترابية. هو المكان ذاته الذي تركته من قبل مجبراً، وها آنذا اعود اليه ثانية ومعي صورة صاحبي أحمد الصالح ومفتاح صندوق تركته هناك تحت شجرة سدر في حوز الجبيلة.

الطريق تأكل ساعة من النهار في سيارة يشاركني فيها اشخاص لم ارهم من قبل ولن اراهم بعد ذلك. الراكبان اللذان يجلسان خلفي يتحدثان بصوت مسموع، من خلال المرآة رايتهما، يلملمان الخريف على مساحة تجاعيد وجهيهما، تحدثا كثيراً، كأنهما يذيبان ملل الطريق.

قال الرجل القريب من النافذة:

- بدأت الأرض تخضر.. الأشجار تستعيد عافيتها.

لم يجبه الآخر هذه المرة واكتفى بالتحديق في فاصلة الطريق الممتدة من الحافة الاسفلتية حتى البساط الأخضر الكثيف. كان كمن ينبهني أن أحدق أنا الآخر في المكان ذاته الذي تحدثا عنه.. خلف غابة النخل المقطوعة الرؤوس ثمة بساتين وخضرة، وثمة حياة جديدة بعد جدب دام سنوات. أخذ اخضرار المكان ينساب عبر زجاج نافذة

السيارة وبدت كل الأشياء تتزلق ببطء. مسح الرجل حبات العرق عن وجهه بيده المعروقة في اللحظة التي مال فيها رأس الشخص الذي بجانبي على كتفي غافياً.

قال الرجل القريب من النافذة:

- زرعت نخلة برحي قال لي ولدي أنها أثمرت وأنهم أكلوا منها رطباً أيام الحرب.

- وأكل الآخرون منها أيضاً...!

فتح الرجل القريب من النافذة عينيه بعدما اصطكت أسنانه مبدياً امتعاضه من اشارة الآخر وقال زاجراً:

- أشك في ذلك..!

اقتربت السيارة من المعامر وبدت الجهة اليسرى من الطريق أكثر اخضراراً بينما انتصب على الجانب الأيمن لوح اسمنتي حمل دعامتين كونكريتين ونقش على صدره بحروف واضحة برونزية تلخيص لملحمة تحرير الفاو.. قرأتها بعدما توقفت السيارة قليلاً عند سيطرة مرورية:

(ايها الزائر أرض الفاو تمهل وأمعن النظر وكن رقيقاً رفيقاً بأرض الفاو فانها الأرض التي سالت عليها دماء 52948 شهيداً..)

- ربع ساعة تفصلنا عن الفاو.

قال السائق وهو يدوس على دواسة البنزين مبتعداً بنا عن المكان بينما الرجل الذي غفا على كتفي قد استيقظ داعكاً عينيه بقفا اصابعه وراح يحدق في ساعته.

الساعة تقترب من الحادية عشرة وشمس آب لم تصب حممها بعد لكني أحسست بريح جنوبية تنسل من الفتحة الصغيرة التي تركتها زجاجة النافذة مخلفة دبقاً على وجه.

- الشرجي ممل...!

قال الرجل الذي غفا على كتفي وكأنه يدفعني الى هوة الماضي، تلك الأيام التي كنا نقضي ساعات نهاراتها في ماء النهر. لم يكن نهر الجبيلة عميقاً لكنه كان يغض بنبات الجولان. ننزل الى الماء بدشاديشنا، نضحك لانتفاخها وهي ترفعنا الى أعلى، وحين نغوص في الماء نسمع أزيز محركات السفن وهي تنتقل لنا من شط العرب الكبير. كان جدي يجلس فوق عتبة باب البيت على حصيرة خوص النخل، و(المهفة) المبللة بالماء لا تغادر يده. حدثنا عن رحلاته الكثيرة، وعن موانئ تمتد على طول البحر.. حدثنا عن آخر رحلاته الى بومباي قبل أن يقعده حادث سقوطه في غرفة المكائن. كنت أراه سندباداً يجوب البحار حاملا غبار المدن التي وطأتها قدماه، ورائحة البحر الذي اغتسل جسده فيه. مرة عاد ومعه قرد صغير بشعر كثيف، ووجه مستطيل، وذنب كأنه علامة إستفهام. ربما أراد بقرده ان يقنعنا – نحن الصغار- انه زار الهند، وجاب غاباتها جالبا غنيمته التي أثارتنا أياما طويلة. لا أعرف ما آل بالقرد بعد تلك الايام فركام السنوات ثقيل في ذاكرة لم اقتنص منها سوى فتات أحداث.

المعامر صارت نقطة في زجاجة السيارة الخلفية، عن قرب بانت خزانات النفط، وبعض بيوت الفاو. الطريق تجرنا الى حيث البوابة الكبيرة للمدينة، مدخلان مقوسان يمر عبرهما طريقا الإياب والذهاب. المدينة تقترب رويدا رويدا. أراها من مكاني في السيارة:

ملعب كبير للألعاب الرياضية مدرجاته ترتفع قليلا عن سياجه الدائري. لافتات صفت بانتظام على جانبي الطريق تتحدث عن المدينة والتحرير والبناء. لم تكن الفاو هكذا حين غادرها اهلها في الحرب، المدينة التي ارتدت لباسها الجديد اشبه بقرية كبيرة بعد ما كانت فيما مضى من الزمان معتقلا كبيرا للثوار الوطنيين، كثيرون سجلوا اسماءهم على جدرانها وآخرون حملوا احلامهم في وطن حر ترف في فضاءاته حمائم الحرية.

عبرنا البوابة الكبيرة ومنها الى مرآب المدينة. قال الرجل القريب من النافذة الى السائق:

- أتوصلنا الى النقعة*...؟

هز السائق رأسه موافقا ينما ترجل الرجل الذي غفا على كتفي ونزلت معه.

قالت أمي:

- من الشرق تجيء المصائب.

توقعت ان اسمع منها المزيد لكنها صمتت فأحسست ان وراء صمتها هما كبيرا. عرفت ذلك وانا أعبث في قطع الخوص التي وضعتها في قدر الماء وأخرى نشرتها قريبا منها بعدما صبغته بالقرمز. لم تغضب

مني كعادتها واستمرت بعملها في صنع الحصيرة. دارت في رأسي الصغير اسئلة كبيرة بعدما سمعت حديث أمي عن الشرق وعن المصائب. ما الشرق.. وما تلك المصائب؟ اعرف ان المصيبة في موت أحد او اشتعال النار في صرائف القصب او تمرد النهر وفيضانه.

في ليلة صيفية دبقة من زمن مضى صحونا على اصوات وضجيج ينبعث من الخارج ثم راحت الايدي تطرق الابواب، صاح رجل في الخارج:

- لقد فاض النهر.

فيضان النهر مصيبة، وهو يقتحم الابواب ويملأ البيوت ماء. خرج الرجال والنسوة وخرجنا نحن الصبية معهم. يبدو النهر كقدر فاض ماؤه وكان على الرجال ان يوقفوا تدفق الماء. صار الشارع نهراً. الرجال يعملون تساعدهم النساء ونحن نلعب فرحين بالماء الذي زار بيوتنا. تغوص سيقاننا فيه حتى الركب غير آبهين بما سيحدث. لا أعرف لم صرخت أمي وهي ترى الماء يدخل غرف البيت وقد سمعت منها ذات يوم ان الماء في الحلم يعني الخير الوفير. هل صرخت أمي من خير يقتحم علينا البيت بعدما أكل القحط والفقر من أجسادنا الكثير...؟

عند بزوغ أول خيط للفجر أنهى الرجال عملهم بعدما هدموا حائطين من خربة قريبة مستخدمين ترابهما لعمل السدة الترابية، ولأن ارتفاع السدة لم يزد شبرين عن مستوى ماء النهر فذاك يعني ان الرجال سيكونون متيقظين لحدوث أي طارئ. توقف الماء.. ويا (أرض ابلعي ماءك). توقف الضجيج لكنهم لم يامنوا الهدوء الذي عم بعدما باغتهم النهر بتمرده في ساعة متأخرة من الليل.

عند الضحى، انخفض منسوب الماء بمقدار اصبعين، ومنعنا – نحن الصغار- من أن ندوس فوق السدة الترابية. ونعنا أيضاً من الخروج الى الشارع الزلق فالأفاعي التي خلفها الفيضان ما زالت تنتشر في المكان.

كانت كلمات أمي ترن في أذني كناقوس من الصعب إيقافه. وثمة سؤال يؤرقني عن المصائب التي تجيء من الشرق. نشف الشارع من الماء والوحل ولم ينشف رأسي من ذاك السؤال حتى فك جدي ذات عصر طلاسمه، وبعدما احتسى شاي العصر وضع عصاه جانبا وراح يحدثنا عن مجاميع الدقاقة:

- دائما يجيئون من الشرق. يعبرون الشط من القصبة. لم تكن السلطة آنذاك قادرة على ردعهم فكانوا يعيثون في الأرض فسادا. قيل إنهم وطأوا دار امرأة تعيش وولدها. وحين همّ أحد أفراد الدقاقة ان يحمل صندوقاً وضع فيه كل حاجيات البيت، ولم يستطع، صاحت المرأة لولدها: (ساعد خالك في حمل الصندوق).. توقف اللص وغادر بيتها دون ان يأخذ شيئاً!

هذه الرواية سمعتها من كثيرين. لم أقتنع بصحتها، وربما الدقاقة هم من أشاعوا هذه الرواية كي يثبتوا للناس مروءتهم، وحسن أخلاقهم، لكن ما سمعناه عن سرقات المواشي والبيوت يفند الرواية.

عرفت ما كانت تعنيه أمي بالمصائب التي تجيء من الشرق، فخلف غابات النخيل التي تمتد على طول شط العرب من الجهة المواجهة للمدينة تترصدنا أفاع سامة.. ما ذاك الإخضرار الا غطاء يخفي نارا تتحين الفرص لإحراق وجوهنا.

- النقعة: مرسى السفن والزوارق في الفاو.
- الدقاقة: مجاميع من اللصوص انتشرت في بدايات القرن الماضي.
- القصبة: المنطقة قبالة مدينة الفاو من الجانب الآخر لشط العرب الكبير، في لهجة أهل الفاو يسمونها (الكصبة) بالكاف الأعجمية.

(2)

كمب البي بي سي يغفو بهدوء على نهر صغير في منطقة الهاتف، تظلله الاشجار من كل اتجاه. كرفانات شيّدت بانتظام يحيطها سياج حديدي ينتهي برؤوس مدببة وبوابة يقف عليها حارسان بلباسين أزرقين كتبت على قفاهما الحروف الانجليزية الثلاثة (B.P.C) مختصر لشركة نفط البصرة.. في أحيان كثيرة نحتطب قرب سياج الكمب، ونتلصص على الرجال الحمر والنسوة الشقراوات، يرمون بأجسادهم في حوض ماء كبير اتخذ مكاناً وسطاً في الكمب. لم نرَ مشهداً غريباً كهذا. ولم نحدث أحداً من أصدقائنا عنه كي لا يفسدوا علينا متعة التلصص. ذات يوم حين خلا المكان من أولئك الرجال والنسوة قال صاحبي أحمد الصالح وهو يشير الى حوض الماء:

- لنذهب ونسبح هنا.

استحسنت فكرته ولكن: كيف نعبر السياج؟ حاولنا جاهدين أن نجد منفذاً، لم تكن من وسيلة الا من خلال النهر الذي يحد الكمب من جهته الشمالية. أعرف صاحبي أحمد الصالح إن أراد شيئاً فعله. خلعنا دشداشتينا وكورناهما فوق رأسينا وبدأنا العوم باتجاه الكمب، وصلنا الحافة الشمالية بعد وقت قصير، وجهد بسيط. تشبثنا بالدغل وصعدنا التلة الترابية بحذر شديد. تفحصنا المكان جيداً وبعد ان تركنا ملابسنا على التلة نزلنا الى الجهة الأخرى. صوت موسيقى ينساب من أحدى الكرفانات اختلط مع صوت جهاز التبريد. لم نمشِ على الطريق المبلطة فسخونة الطريق كافية في أن تبخّرنا! اتخذنا الطريق الترابية مسلكاً.. بضع زجاجات فارغة وعلب ملونة في

الأرض راح صاحبي احمد الطالح يجمعها في مكان واحد. زجرته بخوف:

- ما جئنا لأجل هذا.

قال باسماً:

- نأخذها في طريق العودة!

سبقته الى حيث حوض الماء. دائرة غلفت ببلاطات ملونة. سلّم يؤدي الى الماء. ضحكت في سرّي فقد تعودت أن أرى السلم يؤدي الى السطح، لكن هذا يؤدي الى القعر!

تشبثت بحديد السلم فأحسست بسخونته. ألقيت جسدي في الماء، كان دافئاً. غصت في القاع، لم يكن ثمة طين هنا، البلاطات الملونة نفسها التي شاهدتها في حافة الحوض موجودة هنا في القاع. لا أسماك صغيرة ولا ضفادع. كل شيء بدا نظيفاً وربما أنا الوسخ الوحيد هنا...!

قفز صاحبي أحمد الصالح في الحوض فصفع الماء الجدار الدائري، غاص فرحاً رافعاً ساقيه في الماء بحركات بهلوانية. غصت معه وفعلت ما فعله. شيء ما يجعلني أقلده في كلّ شيء. رحنا نتبارى في الدوران والقفز. كل شيء بدا هادئاً عدا زعيق صاحبي أحمد الصالح وصوت الموسيقى الذي لم ينقطع. غاص مرة أخرى، تأخر في القاع حتى ظننت أنه ضاع فيه. غصت خلفه فرأيته ممسكاً بعجلة مثل عجلة الدراجة.. حركها يميناً، سحبها بقوة. ساعدته في ذلك ونجحنا في انتشالها من مكانها غير آبهين للتجويف الذي خلفته العجلة. تجويف دائري ظل يبتلع الماء رويداً رويداً حتى بدأ الجزء السفلي من سلم الحوض بالظهور. لم نشعر به، ولم نره الا بعدما

اصبحت أقدامنا تطأ القعر ثم خلا الحوض من الماء تماماً فعرفنا اننا وقعنا في ورطة لا خلاص منها الا بالعودة من حيث أتينا.

أحدهم يقترب من الحوض، سمعنا وقع خطاه، التصقنا بالجدار الدائري الساخن. وقع الظل في القاع، وصوت في الأعلى:

- أووووووووه...!

ضحك صاحبي أحمد الصالح، فأطبقت كفي الصغيرة على فمه. رطن الرجل الذي في أعلى الحوض بكلمات لم نفهمها الا أنها توحي بأنه يستنجد بالآخرين.

- سيشبعوننا ضرباً..

رددتها مع نفسي في اللحظة التي رفعت فيها كفي عن فم صاحبي. ازدادت أصوات وقع الخطوات. وخيّمت الظلال على قعر الحوض، أستطيع الآن ان أخمّن عدد الرجال الذين فوقنا. تعالت القهقهات. ضحكنا معهم. عليهم.. ضحكنا كثيراً حتى لم يعد يسمع في المكان الا صوتنا. رددت حافات الحوض صدى ضحكاتنا. انبرى واحد من الرجال وصاح بعربية واضحة:

- اخرجوا يا ملاعين لنعرف كيف شربتم الماء!

نظرت الى صاحبي أحمد الصالح باندهاش وهمست في إذنه:

- أيظنوننا شربناه...؟!

ضحك صاحبي ورد بفتور:

- لا عليك. سأبول لهم مقدار ضعفين!

- أجننت...؟

صاح الرجل الذي يتحدث العربية:

- هيا.. اخرجوا..

كانوا يظنوننا أكثر من اثنين. مشى صاحبي احمد الصالح وتبعته. لا أعرف ما الذي يدور في خلده الا انني أشعر انه سيأتي بما يثيرهم.. في منتصف دائرة الحوض بدأ جسده يهتز بحركات بهلوانية، صار يقفز ويدور ويمشي على يديه محدثا أصواتا غريبة مثيرا ضحك الرجال والنسوة الذين تجمعوا ليروا فصلا كوميديا لم يروا مثيلا له طوال مدة مكوثهم في الكمب.

طلب منا الرجل الذي يتحدث العربية ان نخرج وأشار الى السلم. صعد صاحبي أولا وصعدت خلفه. لم أكن أخشى ما ننالاه من جزاء على فعلتنا قدر ما أخشاه مما تخبئه اللحظات القادمة من فعل يقوم به صاحبي أحمد الصالح أكثر مما فعله في حوض السباحة. لم أجد وقتا كافيا لتأنيب نفسي وشعرت أني محاصر بين رجال لا أعرفهم وصاحبي الذي سبقني الى منتصف السلم والأهل الذين كثرما حذّروني من مرافقته.

كان جدي يسميه (الطنطل) وأمي تسميه معتوها. أما نحن أقرانه الصغار فنسميه (الجنّي)، فهو سريع الجري: إن ركض فلن ترى له ساقا. وان غطس في النهر التجأت كل الضفادع الى البر. وان نام فشخيره يسمع عن بعد عشرين فرسخا. ذراعاه كعرجونين ربطا بخيط في كتفيه. ساقاه مثل محراثين اشبعا نارا.

لم يبق من سلم حوض السباحة الا درجة واحدة ويصل صاحبي الى السطح قبل ان تنزلق إحدى ساقيه لتدك رأسي وترميني في القاع على البلاطات التي بدأت تسخن.

صحت به غاضبا:

- احترس يا جنّي. كدت تكسر ظهري!

لم يجبني. أكمل الصعود ورحت أراقبه من القاع وهو يقف منتصبا بين الأجساد الطويلة لرجال تحلقوا حوله وعلى طريقته المعهودة بدأ ثانية بحركاته البهلوانية يشجعه في ذلك تصفيق الجميع.

لم يعرني أحد اهتماماً. حملوه بعيدا، لا أدري الى أين.. انتهزت الفرصة وأسرعت راكضا باتجاه التلة الترابية، وبينما كانت الضحكات تأتيني من بعيد. كنت قد وصلت الى الجانب الآخر من سياج الكمب.

لن يفلت أحمد الصالح هذه المرة من عقاب، ولن تتشفع له حركاته البهلوانية وألاعيبه. النهار انتهى ولم يأت. فكرت في أن أسأل عنه في مركز الشرطة لكنني ترددت خشية أن يكون قد أخبرهم عني، وربما أضاف كعادته الى مغامرته أشياء لم نفعلها. جلست عدة ساعات منتظرا إياه في كتف النهر، أتأمل الضفادع وهي تقفز بمرح في الماء وأعداد الأسماك الصغيرة متجمعة حول قطعة خبز طافية تقضمها بأسنان ناعمة. الريح القادمة من سطح ماء النهر تثير رائحة خانقة... كنت قد علّقت دشداشة صاحبي على الحائط الطيني منتظرا معجزة عودته سالما من الكمب أو من مركز الشرطة قبل ان أشعر بيدين تدفعانني الى النهر. ولأن المسافة التي تفصل ما بين الماء والجرف تزيد عن ذراعين سقطت في الوحل وغاصت مقدمة رأسي فيه بينما راح الجنّي يعيد حركاته البهلوانية كما فعلها من قبل. غضبت أولا، ثم أصابتني الدهشة وأنا أراه بلباس غريب: قميص أصفر نقشت عليه صورة لامرأة خلاسية. وبنطلون كاوبوي قصّ بغير انتظام ونظارة سوداء.. صاح بأعلى صوته:

- أما زلت تنتظر...؟

- آخ أيها الجنّي. دشداشتك هناك خذها وانصرف.

- انصرف...؟ الى أين؟

- حيث لا أرى وجهك.

- أنت زعلان إذن.

- ...

قفز أحمد الصالح الى النهر بلباسه الغريب، وراح يسبح في الطين حتى غدا قطعة طينية لا يظهر منه الا أسنانه البيضاء. لا أعرف كم ضفدعا داس وهو يتدحرج في الطين قبل ان يقف صامتا واضعا إحدى يديه على رأسه والأخرى تركها سائبة تتحرك الى أمام وخلف وكأنها ربطت بلولب مرن. وقف كتمثال دون حراك. شفتاه المنتفختان تثيران الضحك كما يثير مظهره الأسى. صحيح أني حنقت عليه لكن هناك إحساسا شفيفا يشدني اليه.. نزلت الى الماء وبدأت أغرف بكفي لأصبه على التمثال. صار أكثر لمعانا وبريقا كلما سقطت عليه رشقة من الماء. اية قوة تجعل هذا الجنّي جامدا هكذا...؟ تخلّصت من دشداشتي ونقّعتها في الماء الذي غدا خابطا. مرة وأخرى ثم أنظف التمثال بها. برغم الوحل الا أنه لم يرمش لأحمد الصالح جفن، ولأني أعرفه جيدا مذ جاء به عجوز الى بيت المختار بعدما احترق كوخ والديه بمن فيه.. ففقدهما لما تحملته وتحملت مقالبه. فأحمد الصالح قد تربى في كل بيوت المحلة وفي الوقت الذي يتناول وجبة الغداء في بيت هنا.. فأنه يتناول وجبة العشاء في بيت هناك وينام في آخر.. وآخر.. وهكذا صار إبنا لكل العائلات.

ضوء القمر قد اضفى على جسد التمثال بريقا بانت من خلاله كل النتوءات والتجاويف في ذلك الجسد الهزيل. لم أنته من غسله. شعرت بالضيق من تصرفاته التي أجدني متورطا فيها. فكرت في ان اتركه واعود الى البيت ولكني على يقين أنه سيمكث الليلة بأكملها في الطين دون حراك.. ذات يوم قال لي: (إن لم تأتِ بجديد يبهرني فلن استجب لك) فما الجديد الذي آتيه به كي يبهره ويخلصني من ورطة تمثال الطين هذه؟

لابد أن يكون مستوى الفكرة موازيا لما يفكر به هو.. والا لما استطعت أن أخرجه هذه الليلة من الوحل. ابتعدت عنه خطوات ثم عدت راكضا باتجاهه منتزعا قدميّ من الطين بصعوبة. دفعته بقوة فانزلقت يداي على جسده الموحل واستطعت أن أرميه عند حافة الماء. أحدث سقوطه في الماء صوتا غريبا. نهض بتثاقل ثم قفز قفزة جعلته في منتصف النهر، وكما فعل في حوض الكمب، راح يرقص ويغني بصوت عال مزّق عباءة صمت المكان. تجمع الناس. رجال ونساء. صاح رجل حمل بيده فانوسا رسم ضوؤه خطاً متعرجاً في الماء:

- ماذا يفعل هذان المعتوهان في وقت كهذا.؟

أجابته إمرأة شدّت عباءتها حول خصرها غاضبة:

- انهما يفسدان أولادنا.

قال آخر:

- اتقِ الله يا امرأة. أحمد الصالح إبننا جميعا.

- لنعاقبه إذن.

- ليس قبل أن نسمع ما دفعه لهذا الفعل.

صاح أحمد الصالح من أسفل النهر:

- تعثرت قدماي فانزلقت في النهر.

- وأنت...؟

غابت عن لساني الكلمات. تلعثمت. لم يكن لدي العذر الذي أقنعهم به. أقول الحقيقة واكشف أمر صاحبي. سوف يتهمني بالجبن ويعتبرني غير جدير بصحبته، وقبل ان أنطق بحرف صاح أحمد الصالح:

- استنجدت به فخذلني!

حمدت ربي انه قال (خذلني) ولم يقل كلمة أخرى، عندها تحول سخط الجميع الى سورة ضحك متواصل وغدت حكايتنا على كل لسان، وصرنا مثار سخرية الجميع.

* * *

(3)

طوال السنوات التي عاشها معنا أحمد الصالح لم أرَ أحداً من أهله سأل عنه. أيعقل أن يكون دون أهل. العجوز الذي جاء به الى بيت المختار توفاه الله ولم يترك خبراً يوصلنا الى أهله. في بادئ الأمر، لم نكن نهتم لأمر مثل هذا، ما دام أحمد الصالح يلقى الرعاية من الجميع، ولكن لا بد للمرء أن يعرف أهله ويصل رحمه. لم يكن إسم (الصالح) الذي اقترن باسمه يدل على عائلة أو أهل إنما كان صفة أطلقت على والده لصلاح أخلاقه، كما أخبرنا المختار فيما بعد، وبهذا انقطع آخر خيط يوصلنا الى أهله.

مرة قلت له حذراً:

- ألم تسأل عن أهلك؟

أجابني ببرود دون ان يرفع رأسه عن الأرض:

- ألستم أهلي ...؟

- ربما لك أعمام وأخوال.

- أعمامي أنتم وأخوالي.

لم أتحدث معه بعد ذلك في موضوع كهذا كي لا أضع حاجزا بينه وبين أهل المحلّة. لقد أحب المدينة، والناس، وكثرما سمعته يردد بين حين وآخر أنه في الفاو ولد وفيها يموت وعندما خاطبته ضاحكا:

- لا أحسبك تموت في الفاو..

قال بإصرار لم أره فيه من قبل:

- حتى لو راودني عزرائيل في آخر الدنيا سأطلب منه فرصة ان يميتني فيها.

ضحكت وضحك معي.. وبدأت الأيام تحفر أخاديدها في عمرينا وتجر السنوات أثقالها كأنها قطار عتيق.. وفي كل يوم أزداد تعلقا بهذا الجنّي حتى أضحى الناس يسألونني عنه، أو يسألونه عني حين لا يجدون أحدا منا.

بدأت المدارس تفتح أبوابها من جديد بعد صيف متعب.. دخلت أنا المدرسة، وتخلف عنها أحمد الصالح لأنهم لم يجدوا أوراقا له. عرفت ذلك بعدما وقفت بجانب والدي وأحمد الصالح في جانبه الآخر في غرفة مدير المدرسة. وقفنا نحن الثلاثة قبالة المدير الذي راح يدقق في أوراقي مرة أخرى..

رفض أن يقبل أحمد الصالح ولم تفد توسلات والدي به.

قال والدي موجها كلامه الى المدير:

- أنه ولدنا أيضا.

- الأوراق تثبت ذلك؟

- أية أوراق؟

- شهادة الميلاد.

ردّ والدي بفطرة جنوبية:

- هو ذا أمامك وتستطيع أن تقدّر عمره!

أجابه المدير:

- لا بد من الأوراق. التعليمات هكذا.

لم يجد والدي وسيلة لإقناع المدير الذي أصرّ على تنفيذ التعليمات فاكتفى بالقول: الله كريم!

ترك حديث مدير المدرسة مع والدي أثرا مؤلماً في حياة صاحبي أحمد الصالح. فقد سمع الحديث كله. وعرف أن لا قيمة له دون أوراق. في الأيام التالية كان يقضي الوقت وحيدا بعد ان التحق كل أولاد المحلة بالمدرسة. وتغيرت حياته ولم يعد ذلك الولد الشقي المشاكس. لم يعد ذلك الجنّي الذي تراه في كل مكان وفي وقت واحد! صار أكثر هدوءا وصمتا وبدت الشكوك تنال منه والأرق يهدّ قواه فهو وان كان الصبي ذو الست سنوات الا أنه يدرك كل شيء. كلما التقيت به شعرت بألم الروح الذي يعتصره. وبعد أيام حين عدت من المدرسة بحثت عنه في كل مكان فلم أجده. سألت عنه كل الجيران لكنهم لم يروه.

مرّ يوم، وآخر. وثالث ولم يعد الى بيتنا أو الى أي بيت من بيوت الجيران. مرّ يوم رابع وخامس ولم أجد له أثرا. بدا الناس بالسؤال عنه، وغيابه أحدث فراغا كبيرا عند الجميع. وصارت حكايته على كل لسان. لم نترك مستشفى أو مركز شرطة الا وسألنا فيها عنه. قال أحد الصبية:

- شاهدته قبل خمسة أيام عند أطراف المدينة..

وقال آخر:

- شاهدته يسبح في الشط الكبير.

قالت امرأة:

- أتمنى أن لا يكون عبد الشط قد أخذه منّا!

كثرت الحكايات حول اختفاء صاحبي أحمد الصالح، حكايات كثيرة رسمتها مخيلة الناس وزيّدت عليها ألسن أخرى. حاولت أن أجد خيطا واحدا يربط بين تلك الحكايات فلم أجد ما يجعلني أن أصدق واحدة منها. قال أحدهم:

- أنه التحق بالغجر. قوم جوالون لا مكان لهم. يختطفون الصغار.

لكن أحمد الصالح لم يكن صغيرا ولم يقل الراوي أنهم اختطفوه انما قال التحق بهم وهذا يعني أنه استاء من أمر ما وهرب مع قوم غرباء.

قال الراوي:

- حين شاهد أحمد الصالح الغجر عند أطراف المدينة اتجه نحوهم وربما طلب الالتحاق بهم ولأنهم لم يمكثوا الا يومين فاغلب الظن أنه استمتع باللهو معهم وود مرافقتهم. هو أكثر الصبية حبا للهو والمتعة والغناء. وربما سمع الغجر صوته وهو يغني وراق لهم أن يكون نديما لهم ومعهم في جلساتهم.

لكن: أما كان عليه ان يخبرني بذلك وهو الذي لم يخفِ عني سراً؟ لم أصدق هذه الرواية أيضا ولا الرواية التي تقول (أنه ذهب للبحث عن أعمامه وأخواله) وهو الذي كان يردد (أعمامي أنتم وأخوالي).

أسبوع مرّ ولم يظهر أحمد الصالح ولم يأتِ خبر عنه. تغيّبت عن المدرسة ورحت ابحث عنه في كل مكان كنا نرتاده راودتني فكرة أن يكون قد كرر فعلته في كمب البي بي سي أو راق له أن يزور أولئك الرجال الذين ألبسوه قميصا اصفرا. لم أستطع أن أخبر أحدا فيما أفكر فيه خشية أن أفضح أمراً أخفيناه على الجميع.

- لا بد من الذهاب الى الكمب.

حدثت نفسي ولكن: أسأل من عنه هناك؟ حتى وان وجدت شخصا أسأله فبأي إسم يعرفون صاحبي الجنّي وهو الذي يتخذ في كل مقلب إسما جديدا.؟ لم أجد وقتاً كي أجيب عن تساؤلاتي فقد قادتني قدماي ذات ظهيرة الى باب الكمب الحديدي. وقفت أمام الحارس الضخم فانعقد لساني. صاح بي بصوت خشن وعينيه تقدحان شرراً:

- أنت.. ماذا تفعل هنا؟

إلتفتّ خلفي راصدا طريقا للهروب. ثم صاح بصوت أكثر حدّة:

- ألم تسمع.. أخاطبك انت؟

أمسكت زمام لساني بقوة واستجمعت قواي محاولاً الإجابة بصوت مسموع لكن الكلمات راحت تدور في حلقي غير راضية في الخروج قبل أن أتقيأها حرفا حرفا:

- أ..أ..أبـ..أبحث عن..

زجرني بقوة قبلما أكمل اجابتي:

- لا شيء يفيدك هنا. إذهب وابحث هناك في تلك القمامة.

- أ.أ.. ألم ترَ صاحبي...؟

- صاحبك...؟

خرجت من فمه ضحكة مدوية. استغربت أن أرى البرميل الذي أمامي يضحك. لا أعرف من أية فجوة خرج ذاك الصوت الرعديد.. ضحكت في سرّي دون أن يبدو مني شيء من السخرية أو الاستهزاء.

أجبته بعدما استعدت أنفاسي:

- نعم صاحبي. ولد كالقهوة..

قال والضحكة ما زالت في حلقه ساخرا:

- كالقهوة أم كالشاي؟!

انتابتني موجة ضحك لا لإجابة الحارس انما لشكله الغريب وفمه الذي يبدو كبالوعة دون غطاء وبطنه المنتفخة وجزمتيه اللتين ابتلعتا نصف ساقيه. زجرني بقوة وهو يحفر الأرض بمقدمة الجزمة كثور هائج.

- اغرب قبل أن اعلقك في السياج!

أحمرّ وجهه واصطكت اسنانه غاضبا نافرا آخر كلمة من جملته الزاجرة ابتعدت عنه قليلا وانا حانق عليه، باغتّه بحجارة التقطتها من الأرض وبالتفاتة سريعة وجهتها الى صدره العريض. لم يستطع تحاشيها فارتطمت به دون أن تحدث اثرا. ركضت وصراخه يتبعني:

- عليك اللعنة يا ابن الـــ...

لم أتوقف أو التفت الى الوراء. كاد قلبي يقفز من صدري بعد ان تلبسني الخوف. ماذا لو وقعت بيد هذا الرجل البرميل...؟ ربما سيعلقني في سياج الكمب كي يثبت لرؤسائه أمانته واخلاصه.

ركضت ومعي يركض صاحبي أحمد الصالح. يركض في داخلي. في رأسي. يوبخني:

- لا تكن خوّافا. كن رجلاً.

أية رجولة تقف امام هذا الوحش وتتحداه...؟ وأنا أقف امامه أغرق ظله جسدي وهذا كاف لأن أهتز مثل غصن في عاصفة. ما زلت

اجري.. وأجري.. حتى لم تعد ساقاي تحملانني. سقطت على الأرض وانا أتصبب عرقا. لم يبعدني الخوف عن صاحبي. تذكرت كلماته وأنا أقول له (أنك جني اصيل) ردّ بفتور لم أعهده فيه من قبل:

- حتى ان كنت أصيلا فالجني مكانه الخرائب والمقابر.

- هذا ان كنت جنيا حقيقيا.

قال:

- حين اشعر بالضجر لا أجد مكانا أفضل من مقبرة.

- المقبرة...

دقت الكلمات ناقوسها في رأسي كسيخ يخرج من صدغي:

- اذن لأذهبن الى المقبرة.

بعدما استعدت أنفاسي حملت جسدي باتجاه المقبرة. ولأنها لم تكن بعيدة عن المكان الذي انا فيه. لم استعجل الخطى. مشيت وئيدا واجتزت نيسما غطته شجيرات شوكية يؤدي الى الطرف الشمالي من المقبرة. وصلتها قبل الرابعة عصرا بقليل والشمس لما تزل تجلد المكان بسياط لهيبها. قبور متناثرة توزعت على التلة الترابية. قبور تراب وطابوق ورخام عالية وناصية. شواهد اكلها الزمان ولم يبق منها الا حروف متباعدة. أصوات الفواخت تسمع من بعيد وتضفي على المكان طقسا غرائبياً موحشاً. سرت بحذر شديد خشية أن يبتلعني قبر قديم. ويتحقق ما سمعته من حكايات عن قبور تبتلع الأحياء. دائما الموتى يبحثون عن احياء يؤنسونهم! هكذا كنت افسّر تلك الحكايات حتى ظننت أن هناك طريقا سالكة ما بين عالمي الموت والحياة. مرة غاب أبو شكرية العتال.. غاب اياماً، قلبنا

المقبرة رأسا على عقب لم نر له اثراً لكننا بعد ثلاثة أيام وجدناه جثة طافية في الشط الكبير.

حاولت ان ابعد تلك الهواجس عني واقطع كل الخيوط التي تشدني بقوة الى أيام خلت. اتكأت على قبر قريب وصحت بصوت عال:

- أحمد الصالح يا جني. ان كنت تسمع فأجبني!

انتظرت قليلا فلم اسمع صوتا ولا صدى لصوتي الذي امتصته جدران القبور الساكنة الصامتة. كررت النداء ثانية وانتظرت فأحسست بخشخشة لا تبعد عني كثيرا ما بين قبرين حديثين. صحت مرة أخرى:

- أهذا أنت يا جني؟

لم يجبني أحد. ازدادت الحركة واعقبها غبار خفيف غطى فضاء القبرين. تحركت خطوتين ومددت قامتي فلم ار شيئا. التقطت حجرا تحسبا لما قد يحدث. كل شيء يغفو بصمت طويل. عادت غيمة الغبار ثانية تغطي فضاء القبرين.. تقدمت متيقظا. خطوة إثر خطوة.. تمتمت بكلمات كنت حفظتها عن امي. قالت انها تبعد الشياطين وتطيل الأعمار وتطرد الحسد.. رددتها متبعثرة دون أن أعي ما تعنيه خارطة الأسماء التي اردددها.. قدمت وأخرت فيها. لا يهم ذلك. فالذي يهمني الآن أمر غيمة الغبار التي امامي وكأنها تنبعث من عالم آخر. عالم سفلي خليط من الأرواح المجندة والمعذبة. دنوت ببطء حتى التصقت بأحد القبرين. وقفت على أطراف أصابع قدمي وحدّقت فيما بين القبرين وراعني ما شاهدت: هو ذا صاحبي أحمد الصالح، الجني، ممدا يعبث بيديه في الأرض مثيرا الغبار. ارتخت اصابعي وسقط الحجر من يدي دون إرادة

مني. اسرعت نحوه متجاوزا القبر فتوضح المشهد: عينان غائرتان شفتان متيبستان ووجه ذابل أصفر. صرخت به:

- لماذا لم تجبني؟

فتح عينيه بتعب شديد وأشار بيده ان احملني. فهمت انه لم يعد قادرا على الكلام ولا النهوض. امسكته من تحت ابطيه ورفعته عن الأرض فبدا هزيلا، خفيفا.. حملته على قفاي وعدوت به مجتازاً القبور الناصية والعالية والتلة الترابية. لم اسمع صوتا له وهو على قفاي. وصلت الى النهر وقذفت بجسده الهزيل الى الماء. قذفت جسدي خلفه. طفا جسد صاحبي أحمد الصالح كالفلين في الماء. راقبته عن كثب. رايته وقد فتح فمه وراح يعب الماء حتى ظننت أن بطنه امتلأت وسيخرج الماء من اذنيه وعينيه.

بدأت الروح تدب في جسده وتحركت قدماه جاذفا الماء تاركا بثور الزبد على وجه النهر. خلع دشداشته وغمسها في الماء. لم اتحدث معه. اكتفيت بمراقبته.. غاص والدشداشة في الماء. غاص دقائق معدودات ثم قام مخترقا صفحة الماء. التفت اليّ قائلا وقد امسك سمكة صغيرة بيده:

- عليك ان تستخدم أغرب الوسائل للصيد.

- عليك ان لا تعطي الموت فرصة لاصطيادك!

صمت وكأنه يقلّب كلماتي في راسه ثم قال:

- شيء ما جرّني الى المقبرة، لم أستطع الإفلات منه كأنه صوت امي ناداني من الأعماق!

- هذا جنون. كان عليك أن تخبرني.

- لم أجد وقتا.

- أتريد أن تغيظني في موتك؟

- خير من ان اغيظك في حياتي.

- أحمق!

امتزجت دموعي بقطرات الماء الذي راح يرشقني به. بادلته الرشقات والصياح وأنّبت نفسي حين قلقت عليه فمثل هذا الكائن لا يمكن أن يشكّل غيابه قلقاً.

بدأت نوبة ضحكاته من جديد كأنه يحاول تعويض ما فاته في الأيام التي غاب فيها من ضحك ولعب. راقبته وهو يغوص في الماء او يتعقب ضفدعا أو سمكة صغيرة انفلتت من يديه.. الماء يقترب وحمرة الشمس صبغت فضاء الأفق البعيد وخضّبت سعفات النخيل بلون طيفي وبانت الجذوع كأعناق مدّت الى فوق. مشينا في الطريق الترابية بملابسنا المبللة ووجهينا المزرقين اللذين امتصا سخونة شمس الظهيرة كلها. مشيت الى جانبه. لم يتحدث معي، ولا انا.. كنا نلم شتات الكلمات ونعد خطواتنا. لم ألتفت اليه كي لا اثيره بالتلميح الى شيء ما. أشعر بأنفاسه قريبة مني وصوت قدميه وهو يسحبهما على التراب. هذا الكائن الذي يسير الى جانبي: ماذا اسميه؟ كلما حاولت اختراق عالمه أجدني بعيدا عنه. قبل لحظات كان يلعب ويضحك ويصرخ. حتى خيّل لي أنه لن يسكت أبداً، وها هو ذا الآن يقبع في صمت غريب، صمت لم يبدده الا صوت طائر الطيطوى الذي حلّق قريبا منا. رفعت رأسي وحدّقت في الطائر راصداً حركته صعودا ونزولا. قال صاحبي احمد الصالح:

- لا تصدّق كل ما قالوه عن هذا الطائر.

لم اجبه. اكتفيت بمتابعة طيران الطائر. وأردف ثانية:

- طائر جميل مثل أي طائر. بعضهم يقول إنه مصدر شؤم. تلك خرافة. نحن أشأم منه عليه!

في لحظة مثل لمح البصر صار يقلّد صوت الطائر وحركته فاردا ذراعيه مثل جناحين. قافزا أمامي بحركات متموجة. دار حول نفسه عدة مرات. موجة من الجنون قد اعترته. لا أعرف كيف يفكر هذا الجني. انتابني حزن شفيف دبّ في أعماقي وأنا أرى هذا البهلوان الذي كان قبل ساعات جثة هامدة. تبعته راكضا ودونما شعور رفعت ذراعي مثله. مثل جناحين. صرت اقلده في حركاته وصوته. دائما ياسرني بتصرفاته الغريبة، تدخلني عالما غرائبيا غير عابئ بتوبيخ الأهل وسخرية الآخرين مانحا نفسي فرصة التحليق في فضاءات تخرجني من حياة رتيبة. فعالم احمد الصالح عالم اميبي. متحرك. يخلق من أمانيه فسيفساء لوقته، يجردني من الوقت ويسحرني الى درجة ان روحي تهيم في ضباب كثيف لا يشبه المريخان الذي نراه كل صباح، ضباب كالحليب له رائحة القرنفل وندى همسات العاشقين.

اجتزنا المحرقة. ساحة كدّست فيها القمامة، تلال عديدة صغيرة وكبيرة. بقايا طعام نتن. علب فارغة. صفائح صدئة تآكلت ألوانها. أوراق صفر لجرائد حملت صورا لممثلين ومغنيات ورياضيين وساسة واخبارا من كل بقاع الأرض. هبّت ريح جنوبية دافئة حملت معها حموضة تلك التلال. على مقربة منا انتصب عمود من الغبار حاملا بحركة حلزونية قطع الجرائد وأكياس النايلون، التفت أحمد الصالح الى دولاب الريح وفي حركة سريعة تقدم ليدحو جسده في داخله، ومن داخل الدولاب سمعته يقول:

- دوري ايتها الريح واحملي جسدي.

لم اره بوضوح لكني لمحت ظله وسط الغبار يدور كالمغزل، يدور ويدور ويدور.. وكلما تقدم دولاب الغبار تقدم هو معه وما عدت اميّز بين أكياس النايلون والنفايات التي تدور وبين صاحبي. توقفت الريح ولم يتوقف هو. صار يدور بطيئا بطيئا.. بطيئا حتى توقف. قال قبل أن يلتقط أنفاسه:

- طالما حلمت ان أركب العاصفة، لكنها خذلتني. انتظرتها طويلا وحين آن اوانها خذلتني. النحس يتبعني أينما وليت وجهي كما تتبعني أنت.

- أنا.؟

حدّق في وجهي طويلا وزفر بعمق:

- أنت.

صمت. تمنيت ان اغرز أصابعي في صدره واخرج الشيطان الذي فيه ولكن دموعه استوقفتني وهي تتلاصق في عينيه راسمة خطين متعرجين على سمرة خديه. الملاك يبكي. كان يبكي، بكى، وبكى... وبكى حتى ظننت أنه يسخر مني. انتصبت أمامه صامتا منتظرا توقفه عن البكاء. ذرف من الدموع ما يكفي لسد فراغ ثلاثة أعوام قضاها بيننا واعتقدت أن عينيه قد تيبستا وحين لم أجد ما يبرر صمتي صرخت به:

- عليك ان تصرع شيطانك قبل ان يصرعك!

أجاب بلسان تغلّب عليه البكاء:

- تباً للشيطان. تباً.

مددت له يدي وامسكته من ذراعه وقدته الى حيث المدينة التي بدأ الظلام يلتهمها ويمتص معالمها ببرود.

* * *

(4)

بعد حادث اختفاء أحمد الصالح قررت ان اضعه في مرمى بصري وان لا أتركه لحظة، حتى في ذهابي الى المدرسة كنت اصطحبه معي. وحين ادخل الصف كنت اراقبه من خلال النافذة. يجلس تحت فيء شجرة اليوكالبتوس الكبيرة، وأحيانا ينظف الحديقة من الأوراق المتساقطة، يجمعها في برميل وضع خلف السياج. كان جسده يهزل يوما بعد آخر الى درجة أنه لم يستطع تلبية طلب المختار في أن يخرج للعمل مع معتوق الحداد. لا بد من ان يمتهن أحمد الصالح مهنة تعينه في حياته اللاحقة. عندما يكبر لا بد من سلاح يقاوم به مقتضيات العيش. وقد وجدت في فكرة عمله مع معتوق الحداد فرصة لإبعاده عن أفكاره الغريبة. لم يخرج الى العمل، كان يشكو من صداع. الجميع كانوا يظنون أنه يتملص من العمل لكنني الوحيد الذي صدقته.. فأنا اعرفه جيدا. أعرفه مثلما اعرف نفسي، فهو لا يكذب، معي على الأقل. أخذت تنتابه بين مدة وأخرى نوبات الم في الرأس. كان يغمس رأسه في برميل الماء ويشد رأسه بحبل غسيل حتى يخيل لمن يراه ان الحبل قد غاص في جبهته. بعد أيام قررت النسوة أن يأخذنه الى مكيد أم خميّس بعد ان عرفن أنه بات عدة ليال في المقبرة.

ثرثرن كثيرا في سوباط بيتنا، سمعتهن يتحدثن عن الجن وعالمه وما التصقت به من خرافات صدقنها. قالت واحدة منهن:

- ليته يكون مسلما الجني الذي تلبّسه.

ردت عليها الأخرى بلسان عارفة:

- حتى ان لم يكن فالماما تستطيع أن تعرف ما يطلب.

- قد يؤذيه.

- الماما قادرة على أن توقفه!

كنت قد سمعت كثيرا عن الماما أم خميّس ومكيدها الذي ينزوي عند حافة نهر في الجنوب. زرته مرة مع امي. كانت أصوات الدفوف تخترق اذني وصراخ النسوة وغناؤهن يبعث في نفسي الخوف والفضول في ان أرى ما يحدث داخل تلك الغرفة الكبيرة. كان قلبي يخفق بقوة مع ضربات النوبان.

في وسط بيت أم خميّس ثمة شجرة سدر كبيرة أحاطها سياج من القصب. سمعت واحدة من النسوة تتحدث عن تلك الشجرة. قالت:

- سدرة الماما أم خميّس علوية، يقولون إنها تنز دما في كل خميس، سدرة مباركة، لا يتم زفاف بنات حوز القشلة ما لم يطفن حولها ليلة عرسهن. وإذا لم يفعلن فسيصبن بضر أرضي أو هوائي. شاهدت واحدة جلبوها الى الماما وعيناها في هامتها. قالت الماما أن الجيمان أصحاب الأرض من الجن قد استحوذوا على جسدها. وبعد ان غسلت وجهها بماء الورد الذي تسميه الماما عرق النبي أمسكت بعصا غليظة وراحت تتوعد الجيمان وتطلب منهم مغادرة الجسد. تعرّقت الفتاة وانهارت والماما لما تزل تخرجهم واحدا بعد آخر. كانوا ثلاثة!

صمتت المرأة قليلا ثم أكملت:

- كانت الماما أم خميّس تنتظر كل يوم ظهور الباز، وما ان يجيء ويحط على السدرة بجناحيه القويتين حتى تنادي على

الجميع بصوتها الأجش: ان الأب جاء! مرحى بمقدم عبد الله دستور.. مرحى. فتنحر القرابين ويسال دمها عند السدرة بينما النسوة يرددن بغناء طقوسي: (يالباز.. يالباز.. نذر علي..).

لم يكن طائر الباز الا صورة لعبد الله دستور، الأب في شريعة الزيران. كنت استمع لتلك الحكايات وأنا اشعر بخدر جسدي، كان عالم الجيمان عالما يسحرني وقد عرفت أن للباز الأب أخوة وأولاد. عالم غريب يتجسّد في تلك البقعة الصغيرة من حوز القشلة في جنوب الفاو.

رافقت ثلاث نسوة صاحبي أحمد الصالح الى مكيد أم خميّس، ركبوا في الباص الخشبي. كنت أقف قريبا من الباص. أبصرته يخطو بتثاقل بين العباءات الثلاث. صعدت واحدة ومدّت يدها اليه. التفت نحوي قبل أن يرفع يده اليها وما بين العباءتين رأيت عينيه الذابلتين وشفتيه المتيبستين وقد تعلق بهما ظل ابتسامة باردة. بكيته في سرّي وظننت ان فراقه سيطول.

قالت احدى النسوة اللاتي رافقن احمد الصالح:

- عندما وصلنا الى مكيد الماما أم خميّس كانت الماما بانتظارنا، أخبرتنا ان هاتفا أخبرها بمقدمنا. صلينا على النبي. تهجدنا. رمقت الماما أحمد الصالح بنظرة حادة، بصقت في وجهه المصفر وصاحت:

- أنت ثانية؟

قالت المرأة التي تلفلفت بعباءتها:

- دار في خلدي أن الماما تعرف أحمد الصالح وربما قام معها بعمل يثير غضبها من قبل وهو ما جعلني نادمة على مجيئي معه!

صمتت برهة وطأطات رأسها الى الأرض ثم قالت باسمة:

- لم تكن تعني الصبي، كانت تعني الجني الذي في داخله.

في الغرفة الطينية الكبيرة أدخل احمد الصالح تقتاده الماما وتتبعه النسوة الثلاث. باب من خشب الصاج ذو صفاقتين تؤطره زخارف امتدت كغصن ملتو. راسا الغصن التقيا عند كلمة (الله) في أعلى الباب بينما انتشرت بنسق هندسي حلقات نحاسية في فراغي الصفاقتين.

قال أحمد الصالح فيما بعد:

- عندما اقتادتني المرأة الخلاسية ذات الصدر المتهدل العريض والنظرات الثاقبة كنت اشعر أني أدخل عالماً آخراً لم أستطع التحكم بحواسي وحركتي فهناك قوى خفية تحركني. قدماي تتحركان دون إرادة مني وأصابعي. أدخلت الى غرفة ينبعث من احدى زواياها ضوء سراج ترك خيط دخانه على حائط الطين. ثمة بيرق أخضر رسم على قماشته قمر ونجمة بيضاء، بيارق أخرى صغيرة، سود وبيض، توزعت على الحائط بموازاة سيف عربي عتيق علّق من حلقتي غمده المرصّع بالفضة. أجلستني المرأة الخلاسية بجانب مبخرة لم تتوقف عن تعطير المكان برائحة منحتني خدرا غريبا. غطّتني بملاءة خضراء شفافة كنت أرى من خلالها ما يحدث. كل شيء صرت أراه أخضراً وانا أتطلع عبر الملاءة الخضراء، رايتها، تلك المرأة الخلاسية تزّع الدفوف على صباياها اللاتي دخلن من باب الغرفة الكبير. بدأت تمطرني بماء الورد مرددة كلمات لا أفهمها. اخترقت أصوات الدفوف اذني وبدا جسدي يختضّ. غارت عيناي وانغلقت معالم المكان. لم اعد اسمع الا ضربات

الدفوف واصوات المرأة الخلاسية وصبایاها واشعر بقطرات ماء الورد تنفذ من خلال الملاءة على وجهي. فأغمي عليّ!

قالت المرأة التي اصطحبت احمد الصالح بعد يومين من عودته الى بيتنا:

- صرخ الصبي حتى اهتزت لصراخه الجدران. لم يكن صوته ذاك الذي سمعناه. راح يرفس بقدميه الأرض كشاة مذبوحة. وبعد ان أغمي عليه رفعت عنه الماما الملاءة الخضراء التي تنقعت تماما بماء الورد فبدا جسده كقطعة خشب. أمسكت الماما عصا غليظة وبدأت تنقر جسده من هامته الى اظفار قدميه. طلبت منا أن نضعه على حصيرة خارج المكيد ثم قالت: سيرتاح قليلا ويصحو كحصان!

كنت غافيا في سوباط الحوش حين عاد أحمد الصالح، نام بجانبي. صحوت فوجدته صاحيا. قلت له:

- كنت أحلم بك.

لم يرد. اكتفى بالإصغاء. وأكملت:

- كان راسك منتفخا، تتوسط جبهتك ندبة مثل قرن مستقيم. فمك ينزّ دماً وعينك الواحدة تقدح شرراً. لم ار لك يدين أو ساقين او...

أطبق يده على فمي وصاح:

- ترفّق بي. أنت تمسخني.

ضحك. سد فمه بعد ان ملأ تجويفه بالهواء حتى انتفخت وجنتاه وأشار اليّ:

- أنظر أني أحقق حلمك.

لقد عاد احمد الصالح الذي عرفته. نشيطا، مرحا.. وعند الباب رأيت النسوة الثلاث اللاتي اصطحبنه. صاحت واحدة منهن:

- تركناك غافيا خارج المكيد، كيف جئت الى هنا؟

دون ان يلتفت لها قال:

- جئت راكضا.

قالت الثانية:

- حقا صار اقوى من حصان!

دخلن وتحدثن مع أمي. كنت أسمعهن وهن يحكين ما جرى لصاحبي في مكيد ام خميّس، بينما راح احمد الصالح يكمل حديثه بما رآه هناك.

* * *

(5)

الأيام تدور مثل مغزل قديم يلفنا بخيوط قوية. يوم يجر آخر. وآخر يتبع آخر. هكذا ندور معها.. وتدور بنا.. التحق صاحبي أحمد الصالح بدكان معتوق الحداد، ولم يجد صعوبة في عمله معه. بهر الجميع بمهارته وأولهم معتوق حيث كان يتحدث عنه باندهاش. مرة سمعته يقول:

- علاقة هذا الصبي بالحديد غريبة. ما رأيت الحديد ينصاع لأحد مثلما رايته مع احمد الصالح. تعلم المهنة وكأنه خرج من بطن امه حداداً.. تصوروا صار يعلمني المهنة!

ما كنت مستغربا وأنا استمع لحديث معتوق الحداد عن صاحبي احمد الصالح. فهو يمتلك كما قال لي ذات يوم عقلا مغناطيسيا! يلتقط كل شيء بلمح البصر.

في المساء يجالسني وانا احضّر واجباتي المدرسية، كان يشاركني في كل شيء.. يسألني بين حين وآخر عن كل مفردة في كتاب القراءة. اقرأ فيقراها بعدي. تعلّم الحروف الابجدية.. في اليوم التالي جاءني بورقة سلّمها لي قائلا:

- اقرأ..

حدّقت فيها ثم نظرت اليه مبتسما:

قال.

- كتبت اسمي واسمك.

كان خطه جميلا. حروف بارزة وواضحة. قلت له:

- أهذا خطك...؟

لم يجبني، انما اخذ ورقة من امامي وراح يخط من جديد اسمينا. قال:

- وأستطيع أيضا ان اكتب مغمّض العينين!

أغمض عينيه وكتب. شيطان انت يا أحمد الصالح حتى في هذا...قال واثقا:

- حفظت جميع الحروف وأستطيع الآن ان اقرا كتابك هذا.

لم اكذب حين سميتك الجني.. فأنت جنّي حقا. لك قدرة كبيرة في تعلم الأشياء.. صار ينحت من قطع الصابون وجوها واجسادا مختلفة. صقّها بانتظام أمامه. يغتسل بتماثيل الصابون.. كان يشعر بمتعة وهو يغمس تلك الأشكال في الماء ويفركها بشعره المجعّد. كانت الأشكال تصغر بين يديه وتذوب قبل ان ينفلت منها أنف أو اذن أو ساق.

قال عنه معتوق الحداد:

- عقله أكبر من عمره. أخشى ان يجن.

كان معتوق قد طلب من احمد الصالح أن لا يظهر كل مهاراته في الحدادة كي لا تصبه عين. لكن احمد الصالح – كما قال لي- لا يستطيع العمل بإشارة من استاذه لأنه لا يعمل بإرادته بل هناك قوى ترشده الى الطريق وهو نفسه لا يعلم كيف اتقن مهنة الحدادة وكيف تعلم القراءة والكتابة بوقت قصير وكيف استطاعت أصابعه ان تنحت تلك الوجوه والأجساد والأشكال من قطع الصابون.

كان احمد الصالح يقول:

- ليس هناك مستحيل أمام الانسان، كل امرئ بداخله قوى اذا ما استنطقها سيكون العالم طوع يديه!

لم أعجب به وبالكلام الذي سمعته منه فقط بل خفت عليه أيضا من ان تؤدي به هذه الأفكار الى الجنون.

اتخذ أحمد الصالح المخزن الملحق بورشة الحدادة مكانا مستقلا له. زرته مرة. وجدت تماثيله الصابونية وقد وضعها في رف يمتد ما بين زاويتي المخزن. ووجدت أوراقا كثيرة لتصاميم مختلفة لشبابيك وابواب ورفوف. من تحت السرير استل صندوقا حديديا وقال:

- هذا لك. ضع فيه اشياءك.

- لا أشياء لدي.

- ستكون لك أشياء.

اخذت الصندوق. أخذته منه. وضعته في حجرة امي وفكرت في الأشياء التي سأضعها فيه. لم أجد الا ورقة لأحمد الصالح تلك التي كتب فيها اسمينا. احتفظت بها في الصندوق وكأني احتفظ بصاحبي احمد الصالح.

* * *

(6)

كلما تقدم بنا العمر فتحت جيوب لمشاغل كثيرة وتوغلنا في نفق السنوات البهيم يرسم القدر مصائرنا ونحن نتوق الى امل بعيد. لم يكن ارتباطي بصاحبي احمد الصالح ارتباط اخ او صديق بل هناك امتداد روحي اشعر أني لا يمكنني ان استمر بدونه. كلانا يعرف ذلك. ولذلك كان غيابه بسبب انشغاله في دكان معتوق الحداد عدة أيام يترك فراغا كبيرا في نفسي. لقد ازدادت المسافة التي تفصلني عنه، صرت لا ألتقي به في الأسبوع الا يوما واحدا. ادماني على العيش معه جعلني أفكر فيه طوال الأيام التي ينشغل بها في دكان الحداد. تفردت بصحبته دون أولاد المحلة لا لأنه وجد في بيتنا حرية أكبر مما هي عليه في البيوت الأخرى التي كانت تأويه –كما قال لي ذات مرة- انما لأني وجدت فيه الروح المرحة الصادقة التي تستطيع ان تتغلب بسهولة على اوجاعها.. في اغلب الأحيان، وعندما اشعر بالضيق اذهب الى دكان الحداد وحين لم اجده اترك رسالة له عند معتوق.. كتبت له مرة: (أين انت أيها الجني.. اشتقت اليك كثيرا..) انتظرته يومين، قلت حين يقرأ رسالتي سوف يأتي لكنه لم يفعل. في داخلي زعل عليه لكني لا اعرف السبب الذي منعه عن المجيء. زرت معتوق الحداد مرة ثانية فسلّمني رسالة منه بعد ان أخبرني انه يخرج منذ الفجر حتى المساء الى مناطق بعيدة.. كانت رسالة صاحبي احمد الصالح عبارة عن تخطيط مع بضع كلمات، رسم الصورة التي رأيتها في منامي وعلّق بخط يده:

- معذور صاحبك الجني فهو محاصر بين تماثيل الصابون والحديد. أراك الجمعة. دمت أخاً.

احتفظت برسالته في الصندوق الحديدي مع تمثال من الصابون كان قد نحته لي من قبل. رأس قُسّم الى نصفين: نصف يمثّل وجهي والآخر وجهه! لم يره أحد سوانا.. أتذكّر حين سلّمني التمثال قال لي ضاحكا:

- إذا أردت أن تغتسل فاغتسل بوجهي أولاً ثم دع وجهك ليوم آخر!

- سأحتفظ به.

- لا بد أن تحتاجه.

- ليس للاغتسال بل للذكرى.

لففته بمنديل أبيض وتركته يرقد بسلام بين عشرات الرسائل.

في الجمعة التي التقينا فيها كان احمد الصالح يذكرني بمقالبه ومشاكساته التي قام بها من قبل.. كنت أجد متعة في الاستماع اليه، على الرغم من أني عشتها معه لكنني اشعر أني اسمعها لأول مرة! تحدث عن النهر والمقبرة.. تحدث عن كمب البي بي سي.. وكشف لي أوراقا كانت مخفية عن تلك الحادثة..

تحدث عن تلك الساعات التي تركته فيها هناك. بعد ان وقع في ايدي رجال الكمب. اخرج ورقة من جيبه وقد رسم في جانب منها حوض سباحة خاليا من الماء، وفي الجانب الاخر رسم اجسادا متلاصقة بأوضاع راقصة مختلفة. قال وهو يشير الى الجانب الاخر من الورقة:

- هذا ما لم تعرفه أنت! سوف اكشفه لك الآن.

- ولم الآن؟

قال وقد تلاصفت في عينيه الدموع، ولا اعرف اية دموع تلك:

- هو الحنين لسنوات الطيش.

مدّ أصبعه الى شاربيه اللذين اختطّا وأكمل:

- يجعلانني أكثر اتزانا.

- رجلا.

هزّ رأسه وقال:

- القدر أثث صباي وعليّ بتأثيث رجولتي.

صمت طويلا ثم قال:

- أتذكر القميص الذي جئتك به من الكمب؟

- الأصفر؟

- صرت انظّف به حذائي.

تأمل وجهي طويلا ثم قال:

- حين أدخلوني في يوم حوض سباحة كمب البي بي سي عاريا في الكرفان ارتجفت من برودة المكان. ارتجفت كسعفة تتقاذفها الريح.. كان جسدي مبتلا بالماء. وكان الكرفان بارداً. ارتجفت. وارتجفت، كانوا يظنونني أرقص. فراحوا يرقصون معي. موسيقاهم نفخت نافوخي وضجيجهم. تراطنوا بكلمات لم أفهمها.. وجسدي يوهن. هم يرقصون وأنا أضعف... سقطت على الأرض وحملوني الى فراش لم أر فراشا قط بنعومته. ناولتني احداهن قدحا ملأته بسائل اصفر من قنينة أخرجتها من ثلاجة لم يدعني الضباب الكثيف الذي بداخلها أن اتبيّن موجوداتها. سقتني بيديها. مذاق مرٍّ دخل تجويف فمي. قالت بلكنة جعلتني أضحك منها: - اشرب. يجعلك قويا

وسترقص طول النهار. شربت. وشربت حتى نسفت كل ما في القنينة. اردت النهوض لكنني احسست أن السقف سيصهر عظامي. وصارت الجدران تدور بي. وتدور. دسست راسي في الوسادة ولم اصح حتى المساء.. صحوت ولم أجد أحداً. لا اعرف متى لبست القميص وبنطلون الكاوبوي أو من ألبسني إياها. نهضت من الفراش ودنوت من الباب، باب الغرفة. الصقت اذني في الباب. لا صوت هناك. كان الصمت يخيم على المكان بعد ان كان يضج بأصوات الموسيقى ولغط الرجال والنسوة. فتحت الباب وعبرت رواقا خفتت اضاءته. وصلت الى الساحة وبحذر شديد اتجهت الى التلة الترابية حيث النهر. غصت في الماء وعبرت الى الجانب الآخر من السياج.

سكت وهو يقرأ علامات الدهشة التي اكتسى بها وجهي ثم سلمني الورقة التي رسم فيها تفاصيل احداث كمب البي بي سي وقال:

- احتفظ بها.

صار الصندوق الحديدي الذي بحوزتي يحمل كل اسرار صاحبي احمد الصالح، لا ورقة تخصني فيه عدا خطاباته الموجهة لي.

حدثني احمد الصالح انه قرأ كتبا كثيرة كان يستعيرها من المكتبة العامة ولا يجد صعوبة في الحصول على الكتاب وبخاصة ان أبا نبيل – مدير المكتبة- يعرفه جيدا فهو قد آوى في السنوات الماضية أحمد الصالح كما فعل أهل المحلة معه.

تحدث أبو نبيل عنه بفخر وعده نموذجا للصبر والاندفاع والتحدي. فهو قد تحدى كل الظروف وتعلم الكثير. وها هو ذا يستعير كتابا آخر: روايات وشعر وادب رحلات وتاريخ.

كشف لي ذات مرة صاحبي احمد الصالح عن واحدة من قراءاته قائلا:

- مدينتك هذه، الفاو، كانت اول مدن العراق التي تصدت للاحتلال الإنجليزي في الحرب العالمية الأولى. لم يكن فيها يومذاك سوى مدفع واحد يمثل حامية للدفاع عن الدولة العثمانية. وما ان سقط المدفع حتى سقطت المدينة معه.

كان يلتهم الكتاب التهاما. ويخزنه في رأسه. منظومته المعرفية عبارة عن فطرة. وذكاء عفوي جاء تعويضا عن حياة الحرمان التي عاشها. وكلما تقدمت به السنوات انفتحت امامه مجاهيل المعرفة وخزائنها.

كان يقول لي دائما:

- في الدرس يطلب منك ان تقرأ هذا او ذاك. اما أنا فلا حدود لقراءاتي. تتلمذت على يد كتاب وتخرجت في مدرسة الحياة.

(مدرسة الحياة) قالها وكأنه يمسك بقبضته زمنا امتد به بعيدا.

* * *

(7)

التحق أحمد الصالح بالجيش ولم تكن مسألة تقدير عمره صعبة فقد ساعده المختار في ذلك. كان سعيدا اذ استطاع ان يحصل على ما يثبت وجوده انسانا. فما معنى ان يعيش المرء في مجتمع دون أوراق أو هوية. وهكذا صار احمد الصالح جنديا. في يوم الالتحاق، كنت معه، ضابط التجنيد ينادي بالأسماء. قال لي احمد الصالح:

- سوف ينادي باسمي.

رأيته يبتسم. ثم قال:

- سأكون مهما!

كتب لي رسالة من المعسكر الذي التحق به، ثم تلتها أخرى، ثم رسائل كثيرة، كلما انتقل الى وحدة عسكرية جديدة بعث لي برسالة. لم اجب على اية رسالة. لم يكن يذكر فيها عنوانا يمكنني ان أرسل رسالتي. لا أدري لم يفعل ذلك؟ لم لم يترك عنوانا لي...؟ هذا الجني الذي كبر وصار جنديا. في آخر رسائله قال لي ان قائد الفرقة قد زار وحدتهم واختير هو وثلاثة جنود آخرين أفضل جنود في الانضباط العسكري. وقد رقّع الى رتبة جندي أول.. وأرسل لي رسما لجندي يزيّن ذراعه اليسرى خيط اسود وأردفه بتعليق كتبه بقلم القوبيا بعد ان نقّعه بالماء:

- هذا أنا.. الجندي الأول احمد الصالح. ألم أقل لك انني سأكون مهما.؟!

كما كتب لي ان قائد الفرقة اهداه ساعة يدوية، لم يذكر نوع الساعة. لكنني وجدتها تلمع في يده اليسرى في زيارته الأولى لنا. عرفت انها ساعة قائد الفرقة!

جلست معه ساعة كاملة حاولت ان اعرف فيها كل شيء عن جنديته. لم يخلع بدلته الخاكي طوال مدة مكوثه معنا. كان يقضي بعض وقته في دكان معتوق الحداد. يجلس عند باب الدكان. على الكرسي الحديدي يجلس طويلا. لم تكن عادته ان يجلس هكذا.. رأيته عن بعد جالسا وكأنه في انتظار أحد.. تتبعت نظراته. لم يرني برغم من أني أقف في الشارع المؤدي الى دكان معتوق الحداد. وضعته في مرماي وصرت اتابع كل حركة يقوم بها. اخرج سيجارة كان قد اخفاها تحت البيرية. لأول مرة اراه يدخن. لم يخبرني من قبل انه بدأ يدخن. نفث الدخان من فمه وصوب نظراته صوب شباك خشبي احتضنه حائط متآكل. الشباك مغلق، واحمد الصالح يغوص في صمته. معتوق الحداد في الداخل، اراه كشبح في عتمة الداخل. ربما كان يتحدث معه الا ان احمد الصالح لم يفتح فمه الا لدخان السيجارة. بين لحظة وأخرى يشق وميض اللحام عتمة المكان ويغطي ظل صاحبي منطقة الشباك بقضبانه الصدئة وبقع الصبغ المتبقية من لون اخضر. انتهت السيجارة ووميض اللحام ولم ينته صمت صاحبي. اقتربت منه في اللحظة التي داس ببسطاله عقب سيجارته. قلت له:

- لم أرك تدخن من قبل.

ارتعد كمن يفز من نوم عميق.

قلت له ثانية:

- ضبطتك تدخن.

- سيجارة واحدة في اليوم.

- ستصبح ثلاثا وخمسا وربما علبة كاملة.

- لأطرد السأم.

- وتضر نفسك؟

نهض من مكانه وهو يمسح مؤخرته بكفه اليمنى لكنه لم يحول نظره عن الشباك الذي قبالته. داهمته بالقول وانا اغمز بعيني مشيرا للشباك:

- عرفت سببا لتدخينك.

تلعثم في الكلام وتصادمت المفردات في حلقه:

- ما قصدك؟

ابتسمت وانا أرى صاحبي يتصبب عرقا وقلت:

- لا شأن لي بذلك.

تركته واقفا في مكانه وغادرت دون أن التفت اليه وقد شعرت بأنفاسه تتبعني.

في المساء، دون أن أسأله، حدثني عن الشباك الخشبي. راح يفتق أمامي اسراره وعجبت كيف استطاع أن يخفي عني كل ذلك. قال وهو يهيم في حلم بعيد:

- كانت هناك. خلف الشباك. تمشط جديلتها بمشط خشبي، شعرها كالليل وهو يغطي كتفيها. المشط يغوص في نعومته، حاول القدر ان يخط مسارا جديدا لي. لم آلفه. سقط المشط من يدها وتجاوز قضبان الشباك قبل ان يستقر في الشارع. كنت أقوم بطلاء باب حديدي قبالة شباكها. في المكان الذي رأيتني فيه. رأيتها تنظر اليّ

ثم الى المشط. تركت الفرشاة وعلبة الطلاء والباب الحديدي. اقتربت من الشباك. رايتها عن قرب. سحرني وجهها القمري وهو محاط بسواد شعرها اشارت بإصبع كالبلور الى المشط. انحنيت قليلا فصاحت بي:

- ليس بيديك.

كنت قد نسيت أن يدي ملطختان طلاء بل أني نسيت نفسي وانشغلت بالنار التي اشتعلت في صدري.. جلست على ركبتي. واحنيت رأسي والتقطت المشط بأسناني. لا حل لدي غير هذا، وهذا يرضيها ويرضيني.. انعشتني رائحة شعرها التي ما زالت ملتصقة بالمشط خطوت نحو الشباك ومددت رأسي بين قضبان الحديد فاستلت المشط من بين اسناني، لحظتئذ كأنها استلت روحي بأصابعها. وصرت أحلم بها حتى ملأت كل لياليّ بأحلام جميلة. سرقت قلبي واوقعتني في شباك حسنها.

أهو أحمد الصالح، صاحبي، هذا الذي استمع اليه، هذا يتفجر حبا أهو الجني الذي ملأ الدنيا وشغل الناس؟ لم ار أمامي الا عاشقا اكتوى بنار لا يعرف مداها. أنصت اليه واصفا تلك التي انتزعت قلبه من صدره. آه لو أراها، تلك التي روّضت الجني وجعلته يهيم في عالم اثيري!

لم يتحدث معي أحمد الصالح بعد ذلك المساء عنها ابداً، الا انني كنت أتحيّن الفرص ماراً من أمام الشباب لعلي اراها. توالت الشهور وفي كل إجازة يقضيها بيننا أحمد الصالح كنت أرقب تصرفاته وهو يجلس متسمرا أمام الشباك فلا الشباك يفتح له ولا احمد الصالح يغادر مكانه. كنت اكتب في دفتر صغير كل ذلك. واصفا حالة صاحبي بعد ان هدّه الغرام حتى ملأت صفحات ثلاثة دفاتر خبّأتها

في الصندوق الحديدي. بقيت لياليا وأنا أفكر في ذلك الحب الذي ملأ قلب صاحبي.

تعود معتوق الحداد ان يضع كرسي أحمد الصالح عند عتبة باب الدكان، لا أعرف لماذا، ولم أسأله أنا. لكنني شعرت أنه يتفاءل في ذلك. وفي طريق عودتي ذات مساء وقبل ان يغلق معتوق دكانه مررت على المكان، ومن بين ضلفتي الشباك رأيت الوجه القمر كأنه يودّع آخر حلم له. أحسست بخفقات قلبها وهي تطير في فضاء الشارع وتأكد لي أن صاحبي لم يكن واهماً اذ ترك قلبه ينتظر في كرسي فارغ.

في اجازته الاعتيادية قلت له:

- رأيتها.

- ماذا؟

- تلك التي روّضت الجني!

وضع يده على كتفي وهزني باسما:

- وأخيرا صدّقت.

وامطرني بوابل من الأسئلة دون أن يعرف أني لم أرَ من وجهها الا جزءاً أشرق من خلال ضلفتي الشباك.

* * *

(8)

ذات ظهيرة من شهر حزيران عام 1980، الصيادون يرمون شباكهم في شط العرب بزوارقهم الصغيرة والسماء تحتضن نتفا من غيوم بيض تناثرت هنا وهناك. كل شيء كان هادئا، قيظ الفاو يشوي الوجوه والريح الشمالية اليابسة لا تزيده الا احتراقا.

بعد الواحدة تغير كل شيء، تغير السكون الى ما يشبه العاصفة. ثمة أصوات لإطلاقات نارية متكررة جعلت الطيور تترك أعشاشها وتهيم في الفضاء البعيد. رشقات من الرصاص شربها ماء الشط ودفعت زوارق الجينكو الى ان ترتطم الواحدة بالأخرى، دقائق معدودات وتوقف ازيز الرصاص وعاد كل شيء الى ما كان عليه، أو هكذا ظننا، بدأت أصوات صرخات واستغاثة تطلقها زوارق الجينكو وقد التصقت ببعضها حتى بدت كأنها كتلة واحدة. ركضنا حفاة باتجاه الشط، ثمة ناس كثيرون تجمعوا قبلنا. هم مثلنا سمعوا رشقات الرصاص التي لم نألفها. حشرت جسدي بين حشد الأجساد وانزلقت منها الى الحافة الامامية للشط. يا للهول.. ست جثث ملقاة على الأرض تلطخها الدماء.

قال أحد الصيادين وهو يشير الى الجهة الأخرى من الشط:

- رشقونا بالرصاص من هناك.

قال آخر:

- لم نفعل شيئا سوى أننا نصطاد من خير الشط.

كانت أصوات الغضب ترددها ألسن الناس بينما كنت اسمع صوت امي يأتيني من بعيد وهي تتحدث عن المصائب التي تجيء من

الشرق. كانت كلماتها مثل ريح عاتية تصطدم في جدار الذاكرة وتعيدني الى سنوات خلت.

حُملت الجثث على الاكتاف بينما بدأ نهر من الدم يأخذ مجراه الى حيث شط العرب الكبير..

بدأ الخوف يتضخم، الصيادون لم يأمنوا – بعد الحادث- الصيد وسط الشط. بدا الناس يروون الحادث بطرق مختلفة. اختلفت الروايات، واختلقت روايات أخرى لا علاقة لها بالرواية الأصل. وحين التقيت بصاحبي احمد الصالح حدّثني عن الرواية كما سمعها هو.. قال:

- سمعت ان سفنا حرقت وجثثا شوهدت طافية عند حلق الخليج، لم يقل أحد أنهم قتلوا ستة!

يقينا ان الروايات تداخلت بين ما حدث في الفاو وبين مناطق أخرى، ومثلما سمعت تلك المناطق ما حدث هنا، سمعنا نحن عن العدوان على المخفر الحدودي في زرباطية وفي الدعيجي بعد قصف شديد من الجانب الآخر. كانت كل مدينة حدودية قد تعرضت لعدوان بتوقيت واحد وطرق متشابهة مما يوحي أن الأيام القادمة ستكون حبلى بمفاجآت قد لا تسر!

أخبرني صاحبي أحمد الصالح أن وحدته العسكرية قد نقلت الى شلهة الأغوات وأن غيابه سيطول هذه المرة وقد أوصاني بتلك التي لم ارها أنا ابدا. نطق اسمها لأول مرة (نازك) وبرقت في عينه دمعة أخفاها بأصابعه.

غادر صاحبي المدينة كان هناك شعور ينتابني أنه يودع احباءه فيها وان نظرته الأخيرة يلقيها على مدينة كانت في يوم ما حضنا

دافئا له. غادر تاركاً كرسيه فارغاً عند عتبة باب دكان معتوق الحداد.

أول صباح من أيلول يزحف باتجاه المدينة فاغراً فماً غريباً، حيث بعد حادثة الصيادين الستة لم يعد أحد ينزل الى الشط فسكتت الزوارق على الجرف الطيني من الشط الكبير وغزتها الضفادع ونمت على خشباتها الطحالب وتهرأت شباك الصيد بعد ان توقفت عنها الايدي كأن المدينة مقدمة على سبات طويل!

عدد من الطائرات الحربية الأمريكية الصنع حلقت في سماء الفاو. حلقت على ارتفاع منخفض، استطعت أن أميزها بوضوح، بخيط دخانها الكثيف الطويل. هز صوتها بيوت الطين والقصب وأصيبت الطيور والأطفال بالذعر. كانت بداية لرحلة طويلة، قد ندفع فيها دماء عزيزة. خطرت في ذهني أن أخفى صندوقي الحديدي، بحثت عن مكان آمن فلم أجد غير أن اودعه الأرض. حفرت حفرة بعمق ذراعين تحت شجرة السدر الكبيرة وضعت فيها الصندوق وكأني أدفن أحلامي، وخامرني شعور أني ادفن صاحبي أحمد الصالح.

من المعتاد أن نسمع صوت صفارة الإنذار في ظهيرة كل يوم معلنة انتهاء الدوام لعمال الميناء، ليخرج بعدها رتل الدراجات الهوائية الصفر من بوابة الميناء الكبيرة متجها نحو البيوت الآمنة، وكلما سمع الصغار صوتها وقفوا عند أبواب البيوت بانتظار آبائهم. ولكن هذه المرة لم يكن الأمر كذلك. الصفارة تسمع في غير أوانها، والدوام لم ينته بعد، كأننا نسمع صوتها للمرة الأولى، صوتاً غريباً يخفي خلفه أمورا لم نستطع تخمينها. استمرت الصفارة تطلق صوتها مع كل طائرة تجيء، كان جنود لواء المشاة (111) قد

استقروا عند أطراف المدينة متخذين من مباني المطار مقرا لهم، بينما انتشرت بعض السرايا في داخل المدينة. بدأ الذعر يتسرب الى البيوت وما ان خرجت أول شاحنة من الفاو وهي تحمل أثاثا لعائلة حتى أعقبتها عدة شاحنات.. عدة عوائل ارتحلت ولم يبق الا القليل.. زارنا المختار، وتحدث مع ابي، لا أعرف ما دار بينهما من حديث لكنني من خلال القلق الذي رأيته فيه وعبوس وجهه أحسست أن هناك أمراً ما يحدث هنا.

قال بصوت خفيض:

- علينا ان نرحل!

لطمت امي وجهها وصرخت:

- أنترك دارنا؟

- لا بد من الرحيل، قال المختار أن المدينة في مرمى المدافع.

- لكن المختار لم يرحل بعد.

- سيرحل بعد ان يتأكد من رحيل الجميع.

وسط صراخ أمي وذهولنا حزمنا امتعتنا الصغيرة، الملابس والأفرشة وكتبي المدرسية. لم يرض أبي أن نرفع صورة جدي عن الحائط وقال:

- دع صورة جدك تحرس هذا البيت!

كان الصباح التالي صباحا كئيبا. بضع قذائف سقطت في البساتين المجاورة. قال سائق الشاحنة الذي وصل للتو:

- سقطت قذيفة على قن دجاج وقتلت معها بقرة بيت حالوب. الحمد لله ان حالوبا وزوجته ما كانا في البيت.

لم يجبه أحد من الذين تجمعوا حوله وراح يقص علينا حكاية الليلة الماضية:

- سقطت ثلاث قذائف بالقرب من الشاحنة عندما كنت انقل أثاثا.. اصابت شظية قمرة الشاحنة.

أشار الى موضع الشظية. اخترقت الحديد ونفذت من الجانب الآخر. أكمل حديثه قائلا:

- كان معي في الشاحنة رجل مسن وامرأة وطفلها، وكانت شظايا القذائف تئز في فضاء الشارع. الأعمار بيد خالقها ولا تسقط ورقة خضراء ابدا.

كان ايمان الرجل كبيرا. لم أره خائفا. بث مذياع الشاحنة أناشيد وطنية يقطعها بين حين وآخر صوت رخيم لمذيع يسترعي انتباه المستمعين الى أن بيانا سيصدر بعد قليل.

تحلق الرجال في ظهيرة يوم 22 أيلول 1980 حول قمرة الشاحنة وهم يستمعون الى ما يبثه المذياع. قال أحدهم:

- أنها الحرب.

تحجرت الحدقات على شفة الرجل وهو ينطق ما لم نكن نتمناه. قال ثانية:

- لنعجل الرحيل قبل ان تحرقنا نار الحرب.

رد عليه ثان:

- أذكر الله يا رجل. ما اظنها الحرب.

أشار الأول الى المذياع بأصبعه الذي اكلت منه الأرض كثيرا:

- ألم تسمع.؟ هو ذا صوت الحرب.

صاح شيخ عارف الذي كان جالسا منشغلا بلفافة تبغ:

- ابعد الله عنا الحرب وويلاتها. أن الله لا يتبرأ من عباده.

كثر الحديث عن الحرب وكل لسان صار يخرج ما في داخل النفس من مشاعر وخوف وتضاربت الآراء وبين تارة وأخرى يسمع صوت المذيع وهو يذيع كلاما كرره عدة مرات.

صاح سائق الشاحنة:

- هلموا بنا قبل حلول الظلام فالطريق غير آمنة.

كان شيخ عارف يذرف دموعا لم ار مثلها من قبل.. دخن بشراهة وامسك حفنة تراب راح ينسل بعض منها من بين أصابعه، كان يشم التراب ويمرّغ وجهه فيما بقي منه ويبكي. أما أبي فقد صمت وكان صمته مخيفاً.

انحشرت النسوة والأطفال في العربة الخلفية من الشاحنة بين قطع الأثاث والأفرشة، وتجمع الرجال حول الشيخ عارف الذي رفض مغادرة المدينة. حاولوا إقناعه لكنه رفض، حاولوا معه مرة أخرى. وأخرى فأطلق صرخة استجمع فيها كل قواه:

- ان لم نكن قادرين على حماية مدينتنا فلن نستطيع حماية أنفسنا وعيالنا!

صمت لحظة ثم قال:

- أنترك الفاو في فك الموت بينما ننجو بجلودنا؟

قال رجل:

- الجيش سيحميها يا شيخ عارف وهو أقدر منا على ذلك.

نهض شيخ عارف من مكانه وكأنني أرى المدينة قد قامت معه وقال:

- شربنا ماءها. أكلنا رطبها وخيرها. ألم يكن هذا كافيا أن نبقى معها في عسرها. ما هي الا أيام تزول ويبقى الذكر الطيب. أتخشون الموت ولا تخشون العار؟ أنكم في امتحان صعب وعليكم ان تجتازوه أما أن تبقوا جميعكم واما أن تتركوا فردا من كل بيت كي لا يقولوا عنا انهم تركوا مدينتهم!

غسلت كلمات شيخ عارف نفوسنا من الوهن الذي دب فيها. وابعدت الخوف والفزع عنا. كنت اهتز لكل كلمة يقولها.. وضعنا شيخ عارف في مفترق طريق صعب. ووضعنا قبل ذلك امام حقيقتنا ورجولتنا. انحشر أجسادنا بين النسوة والأطفال ونهرب خائفين تتلقفنا القصبات والمدن وتترصدنا الوجوه أم نبقى كما النخل مهما كانت العواقب؟

صاح سائق الشاحنة من جديد:

- هيا يا رجال.

دنوت من شيخ عارف وامسكت يده بقوة وقلت له:

- سأبقى معك.

- وأنا..

- وأنا..

رفع شيخ عارف يديه الى السماء قائلا:

- الحمد لله اذ انجبت المدينة رجالا.

تحركت الشاحنة بمن فيها متخذة طريقها عبر الازقة المتربة حاملة معها أفئدة وعيونا ما زالت تلتصق بفضاء المدينة.

* * *

(9)

بعد اليوم الثاني والعشرين من أيلول عام 1980 أصبحت الفاو مرمى للقذائف والصواريخ ولأنها لا يفصلها عن الجانب الآخر الا شط العرب فقد كانت منطقة القصبة المقابلة مرمى لمدفعية جندنا. كل قذيفة تنطلق من هناك يرد عليها الرجال بوابل من القذائف. توقفت صفارة الإنذار ولم تعد تطلق صوتها بعد ان غادر الناس المدينة. لا حاجة للصفارة في مكان ملتهب فالمدينة بكل أسواقها وبيوتها وبساتينها صارت ساترا واحدا. لم تنم المدينة مذ قامت الحرب، من رأس البيشة في الجنوب حتى السيبة في الشمال ثمة عيون تحدق في الثعالب المتربصة لها.

في كل مساء، وبعدما يخيم الظلام على المدينة يبدأ شيخ عارف جولته يدور في أزقتها ويتفقد بيوتها واحدا فآخر ويقضي ساعات طويلة مع جنود اللواء (111) في مواضعهم وثكناتهم.. وفي النهار كنت اطوف حول شباك نازك متذكرا صاحبي أحمد الصالح. بقي الشباك مفتوحا يكشف عن عتمة المكان وصمته.. على دكة دكان معتوق الحداد جلست مستمعا الى انفجارات القذائف واصوات الرصاصات المتفرقة التي تأتيني من بعيد. أمام شباك نازك جلست كما يفعل صاحبي احمد الصالح وجها لوجه أمام الشباك الخشبي وظل صاحبي يشاركني المكان... يا أحمد الصالح، يا جنّي، أين انت الآن.. أما زلت في شلهة الأغوات أم حطت بك الحرب في مكان آخر. أعرف أنك لن تموت ففيك من الحب ما يجعلك أكثر تشبثا بالحياة. ايه يا صاحبي: أوصيتني بنازك فذا شباكها خال. وبيتها مهجور. اخترقت الشظايا شباك حبيبتك لكنها لم تستطع قتل حبك.

ولن تتمكن منك. أنت الآن تقاتل من أجل هذا الحب. كن يقظاً يا صاحبي. من أجلي، من أجل مدينتك، من أجل نازك التي أحببتها. أحمد الصالح: يا جنّي، أما زلت تمسح حذاءك بقميص كمب البي بي سي؟ أما زلت تنحت من قطع الصابون وجوها وتماثيل؟ أني اشتاق اليك..

بكيت وبكى معي ظل صاحبي وشباك نازك ودكان معتوق الحداد والكرسي الفارغ الذي يغفو بصمت في عتمة الدكان مع قطع الحديد والجينكو. في كل مكان اذكره، وكل مكان يذكرني به، كل جدار أو جذع نخلة أرى فيه وجه صاحبي احمد الصالح، صارت ذكراه شغلي الشاغل في أيامي اللاحقة. لم أفكر بأحد سواه. كل جندي سألته عنه لم يدلني عليه ولم يعرفه أحد. صرخت في وجه أكثر من جندي:

- كيف لا تعرف احمد الصالح؟

بعضهم يسخر مني، وآخرون يمرون دون جواب، كنت أظن أن الجميع يعرفونه كما اعرفه أنا! كيف لم يسمعوا عنه، هو انسان أميبي يتحرك في لحظة واحدة الى كل الجهات. في يوم ما، أخبرني هو أنه استطاع أن يوطد علاقته بجميع آمريه والجنود في المعسكر.

- كلهم أصدقائي!

قال ضاحكا ثم أردف قائلا:

- أستطيع أن اجعل سكان مدينة كاملة أصدقاء لي!

استغرب كثيرا حين اسمع أن أحدا لا يعرف أحمد الصالح أو لم يلتق به. سالت عنه كي أخبره عن حبه الكبير، ماذا لو عاد وسألني عنها؟ ماذا لو عاد ولم يجدها؟

كانت فرصة لي أن اسأل المختار الذي زارنا ذات ظهيرة حاملا معه متاعا لنا، أن أسأله عنها ولأني لا أعرف اسم صاحب البيت فقد اكتفيت بتحديد موقعه. هز المختار راسه وقال:

- تسألني عن ابي نازك. هم في الناصرية.

تنفست الصعداء، أستطيع الآن أن اجيب صاحبي إذا ما سألني عنها.. ولكن، متى يجيء هذا الجنّي...؟

أمرنا شيخ عارف بأن نحفر عددا من المواضع، كل موضع يسع شخصين وحصّناها بأكياس الرمل. في ساعات النهار وحين يشتد القصف كنا نلوذ بالمواضع صامتين. كل قذيفة تسقط على المدينة تقتطع جزءا منا.

مضى أسبوع ولم تنته الحرب كما تنبأ شيخ عارف، وكل دعوة سلام وجهت من بلدنا في قضاء النار المتأججة لم تجد اذنا صاغية من الطرف الآخر. في المذياع الصغير الذي جلبه لنا المختار نستمع الى بيانات الحرب وتفرحنا الانتصارات في كل الجبهات وتحزننا المدينة وهي تلوب تحت أعاصير القذائف.

ذات ليلة، حين توقف القصف، وبقيت مشاعل التنوير معلقة في الفضاء كملائكة تحرس المدينة، سمعت صوت صاحبي من خلل المذياع، كان يتحدث في برنامج خاص بالمقاتلين..

ألصقت اذني على بدن المذياع وسمعته واضحاً:

- أني المقاتل احمد الصالح انقل تحياتي الى جميع اهل الفاو..

وراح يردد الأسماء فردا فردا، لم ينس أحداً، شعرت به يبكي، انتقلت دمعته عبر الاثير واستقرت ما بين اهدابي، بكيت وأنا أحدّث الشخص الذي شاركني الموضع:

- أسمعته. لم ينس أحداً.

عرفت من المذيع ان اللقاءات تنقل من المحمرة المحررة. اذن، صاحبي هو الآن في المحمرة. وهذا اول خيط يدلني عليه. تمنيت لو استطاع المذياع أن ينقل صوتي اليه: (ليت لي سرعة مؤشر الراديو في الانتقال بين المدن!)

مضت بنا قافلة الأيام وشيخ عارف ما زال يصبّرنا وبرغم رباطة جأشه الا انني اشعر أن في داخله قلقا كبيرا. كان يشعر بأن الحرب قد تنتهي في اية لحظة، وتنبؤاته تشير الى ذلك، لكنها – الحرب- قد خيّبت ظننا بتنبؤاته! انتهى الأسبوع، والثاني، والثالث والرابع.. ولم تنته الحرب. صار شيخ عارف يبتعد عنا، ويتحاشى الجلوس معنا حتى صار يغضب حين يرانا نضحك فأغلب الظن أنه يعتقد أننا نتندر بتنبؤاته. وساءت صحته وما زال وهم الخوارق يعتريه. فوجئنا به ذات يوم يقول:

- كم هي قاسية الحرب، لا توقّر كبيراً ولا تعطف على صغير.

قذف كلماته كمن يقذف حجرا في ماء ساكن. أخيرا عرف حقيقة الأمر، وحقيقته. كان يهذي بهمس كأنه يحدّث أحداً بينما كانت قواه تخور سريعاً.

في وحدة الميدان الطبية لفظ شيخ عارف آخر أنفاسه.. كانت عيناه مفتوحتين كأنهما تودعان عبر شق في الخيمة المدينة التي أحبها. مات شيخ عارف فحملناه وسط قصف شديد الى المقبرة. هناك، كان التراب يغطي جسداً باركه الشط والنخل والملح. مات شيخ عارف وماتت معه نبوءاته لكنني كنت اراه كل ليلة يجيء من المقبرة على فرس بيضاء، يدور في الأزقة القديمة، ثم يعود مع اول خيط للفجر الى قبره ليرقد في سلام.

(10)

بعد موت شيخ عارف تفرّق الشباب، كأن موته تأشيرة رحيل لهم الى المدن البعيدة. كان عليّ أن اترك المدينة معهم لكنها كانت تشدّني اليها. بقيت اياماً مع افراد الجيش الشعبي، جاءوا من انحاء متفرقة. من الوسط والشمال. في المساء، وحين يهدأ جسد المدينة، كنت أحدثهم عنها وعن ناسها، وعن راس البيشة والفنار الكبير الذي حلّ محل علم عبيّس! حدثتهم عن علم عبيّس كما سمعت الرواية من شيوخ المدينة:

- لا أمان للبحر!

جملة يرددها كل من كان البحر له مأوى ومصدر رزق. والحاج عباس واحد من الرجال احبّوا البحر، عاش سنين حياته في الماء أكثر مما قضاها على اليابسة، لسعات الشمس والملح جعلا جسده صدفياً. يخرج بزورقه الصغير وولده حيث البحر، يمضيان النهار بين الماء والسماء، لم تستطع الشيخوخة أن توقف الحاج عباس عن الخروج الى الصيد، كان يقول دائما، البحر مأواي وقبري. هكذا تمنى، وذات شتاء عاصف تحول البحر الساكن الى مارد مخيف وكاد الماء يلتصق بالسماء. تقلّب البحر كصفحات كتاب في ريح عاتية. حاول الحاج عباس أن ينقذ ولده الوحيد من يد القدر لكن القدر هذه المرة اختار الحاج. وغرق قبالة راس البيشة. صار له البحر قبراً كما أراد.. وصار المكان يُعرف بعلم عبيّس ليكون شاهداً أن لا أمان للبحر ابداً!

كنت أحدّث القادمين من المدن البعيدة عن أساطير الفاو وطيبة أهلها ولأنهم لم يلتقوا بأحد من أهلها فقد ظنّوا أن تلك الحكايات ما

هي الا نسج خيال! لم يواجهني أحد بظنونه لكني شعرت بذلك من خلال اسئلتهم الكثيرة وضحكهم المتواصل واندهاشهم المثير، لكنهم سيصدقونني لو رأوا شيخ عارف كما أراه أنا في كل ليلة.. ربما سيرونه في ليلة دكناء تغسلها الشظايا وتضيؤها قنابر التنوير وتطربها أصوات الرصاص الطائشة لقناصين ما خلدوا للنوم.

كل صباح أزور سوق المدينة. اتوقف عند مكتبة الفاو، ومطعم حبيب عنبر ودكان إسماعيل المصور ومقهى كريم ناصر، أزور سوق الأسماك التي ما زالت تحتفظ بالزفر واصوات الباعة وكأنها تخرج من نفق عميق. كل مكان يذكرني بصاحبي احمد الصالح، عند إسماعيل المصور جلس ذات يوم على كرسي حديدي، امام صندوق الكاميرا، كان إسماعيل المصور يدحو برأسه في القماشة السوداء. لا نعرف ما الذي يفعله في داخل الصندوق الا اننا كنا ننتهزها فرصة للضحك دون ان يرانا. كان ذلك قبل التحاق احمد الصالح بالجيش. كل شيء بقي ساكنا، باستثناء سيارات الايفا والجيب العسكرية. حتى محرقة المدينة التي كان ينبعث منها الدخان طوال أوقات النهار والليل توقفت. وتوقف الباورهوز وحركة الرافعات في الميناء واصوات باعة النفط والغاز والملح المتجولين. توقف كل شيء وبقي قلب المدينة نابضا وعيناها مشرئبتان لأهلها الذين تلقفتهم المدن.

لم يأتني خبر عن أحمد الصالح، ولم أسمع صوته ثانية في المذياع.. انتظرت أياما واياما.. وطال الانتظار ونفد الصبر.

عند المقبرة الكبيرة وقفت. السعفة التي وضعناها على قبر شيخ عارف يبست صحت بصوت ارتطم بالقبور:

- حان وقت رحيلي. المدينة تضيق بي يا شيخ عارف. المدينة تضيق. لم تنته الحرب ما دمت تطوف الازقة العتيقة بفرسك البيضاء ليلا.. عد نهارا يا شيخ لأصدق ما تنبأت به.. انا آخر المكذبين بك. عد نهارا يا شيخ لأصدق عينيّ. لم تنته الحرب يا شيخ عارف. لم تنته حتى تأكل منا الأصابع والعيون والقلوب.

....

اتكأت على قبر صغير وانتظرت ان يجيبني شيخ عارف لكنه لم يفعل.

وغادرت.

* * *

(11)

غيوم من دخان اسود امتدت على طول شط العرب في الضفة الأخرى. حرائق لخزانات نفط وبيوت ومزارع وثكنات حرب.. في محطة انتظار الجنود وقفت بانتظار سيارة الاعاشة التي ستقلني الى البصرة. عدد من الجنود افترشوا الأرض وآخرون تجمعوا حول صنبور ماء وهم يغسلون وجوههم من غبار المواضع. قال لي أحد الجنود:

- ان كنت تسأل عن أحد سوف أدلك عليه. انا اعمل في قلم اللواء.

لم استغرب لأنه طلب مني ذلك، لأنني كنت المدني الوحيد بين عشرات الجنود. قلت له:

- هذه مدينتي.. ما جئت كي أسأل عن أحد ولكن لو تعرف شيئا عن اللواء الثالث والثلاثين.

قال:

- اللواء في المحمرة. لواء بطل. كل جندي فيه يعادل سرية كاملة.

زادني حديث الجندي عن ذلك اللواء فضولا أن اسأله عن صاحبي أحمد الصالح. قلت له:

- لي صديق فيه اسمه أحمد الصالح.

صاح الجندي بصوت عال:

- الصاروخ!

حدّقت في وجهه. لم اسأله عن صاروخ ولكني سألته عن صاحبي، وكأنه عرف سر دهشتي وأردف قائلا:

- يسمونه في اللواء الصاروخ، سمعت عنه ذلك في الفيلق قالوا إنه ينطلق بسرعة الصاروخ ولا يرتد أبداً. وسمعت أنه كرم بنوط شجاعة.

فرحت. فرحت جدا. ورحت اتباهى بصداقتي معه أمام الجندي:

- هو صاحبي. من الفاو. من هذه المدينة. عشنا معا في بيت واحد. هو أخي قبل ان يكون صاحبي.

- من حقك ان تفخر به. فهو مقاتل شرس كما سمعت عنه.. من حق كل أبناء المدينة ان يفتخروا به.

حمدت ربي اذ التقيت بمن طمأنني عليه. أستطيع الآن ان أسأل عنه كل أفراد اللواء. بل أستطيع ان اسأل كل جنود الفيلق. فأخبار البطولة تنتشر بين الافراد انتشار العطر في النسيم.

سيعلق النوط على صدره ويقف امام نازك قائلا:

- هذا من اجلك. من اجل أن تبقين عفيفة طاهرة. من اجل أن لا يمسك سوء أحمل نيشان الدفاع عنك، كما احملك أنت في صدري. في قلبي. وسط الدخان الكثيف والرصاصات القاتلة. كل زقاق نطهره كنت اراك فيه. رايتك في أمكنة عديدة: في الفيلية والميناء والسورة وعلى ضفاف الكارون وعند مشارف عبادان. يقينا انت معي دائما...

هكذا أجد متعة في استحضار صاحبي. استحضره أينما كنت واينما كان. في لحظة تختزل الزمان والمكان وتقرّب روحين.. طريقة الاستحضار هذه تعلمتها منه. من صاحبي احمد الصالح. قال:

- كلما ضاقت بي الدنيا، أغمض عيني واستحضر صورة امي وابي. أحدثهما ويحدثانني.

علّمني أحمد الصالح أن أغمض عينيّ، واسرح في خيال بعيد. لاستحضر من شئت. في المرة الأولى لم أستطع الإمساك بمن اريد. حين اغمضت عيني كانت صور عديدة تتحرك في عتمة حدقتي. وجوه كثيرة تنزلق يمينا وشمالا وتتحرك كما البرق وتسقطني في بئر الذاكرة العميقة، وجوه لأناس أحببتهم وفارقتهم وآخرين لا اعرفهم ولم التق بهم. وجوه مختلفة. وجوه كلاب وقطط. امكنة مختلفة: أنهار، شوارع، غرف مؤثثة وأخرى مهجورة. أسلاك شائكة وعربات نقل، مطايا ونباح كلاب وفواخت وعصافير. صوت نار تأكل في هشيم التنور. أشياء كثيرة احتفظت بها الذاكرة وخزنت في قعرها. كنت أحاول الإمساك بواحدة منها لكنها كانت تختفي وتظهر أخرى. وأخرى. وأخرى.. أيام قضيتها هكذا قبلما اروّض ذاكرتي وقدرتي. حاولت ونجحت. أكرر اسم من اريد استحضاره عدة مرات وأغمض عينيّ وأتنفس عميقا، فأراه. ذاك الذي استدعيته من قعر الذاكرة. أراه كما رأيته آخر مرة. نجحت في أن أرى صاحبي أحمد الصالح.. ببدلته العسكرية والنوط الذي يزيّن صدره. لم اره آخر مرة بالنوط، لكنه جاء به الآن..

رأيته باسما. حسن الوجه. قلت له:

- أين انت يا صاحبي؟

أشار الى صدره قائلا:

- في المكان الذي جعلني بطلاً!

- حدّثني عنك.

قال:

- حين التهبت النار وصارت قاب قوسين مني. تذكرت اللحظة التي وقفت بها امام كوخنا الصغير والنار تأكله بما فيه. رأيت وجه امي عبر لهب النار تستنجد بي. رأيتها وهي تذوب وتصرخ.. لم يكن امامي الا أن اقتحم النار واخرجها منه. وكلما تقدمت كانت تبتعد عني حتى ظننت أن برزخا يفصلني عنها. ما يئست تقدمت بطول قامتي حتى صار الرصاص يتشظى في جانبي. لم اعر اهتماما لتحذيرات الآمر ولا الجنود الذين معي. اصطبغ اسفلت الميناء بالدماء. والأجساد تتقاذف امامي وصوت امي اسمعه يأتيني من بعيد.. سكن كل شيء وبقي صوتها يملأ فضاء الميناء.

قلت له هامسا:

- لقد انتصرت لها من نار أرادت أن تأكل ما بقي لك.

- ليتني استطعت أن اخرجها وأبي من نار الكوخ.

- كنت صغيرا.

- كنت ضعيفا!

انطفأت الذاكرة. وغاب أحمد الصالح في العتمة وأحسست بيد الجندي الذي بجانبي تمسكني. وقال:

- الشاحنة بانتظارك.

* * *

(12)

في مدرسة مهجورة اتخذتها العوائل المرتحلة من الفاو سكناً وتوزعت على الصفوف وغرف الإدارة والرواق المؤدي الى الساحة الكبيرة. هناك، بقيت أياما لم يغب خلالها عن ذهني صاحبي أحمد الصالح. كانت الصفوف تضج بضحكات الصغار ولعبهم. وعلى الرغم من اننا لم نكن بعيدين عن القذائف التي تسقط على المدينة الا أن شعورا بالأمان كان ينتابنا.

كان ملا يوسف قد اتخذ من غرفة الصف الرابع سكنا له ولعائلته الصغيرة. يجلس منفردا وهو يسجل في دفتر صغير كل بيان يذاع عن القيادة العامة للقوات المسلحة. ولأنه اصم فقد كان يشتري جريدة مساء كل يوم ينقل منها البيانات. كلفني عدة مرات أن أقوم بعمله في أوقات انشغاله او مرضه، استهواني العمل معه. صرت أسجل كل ما اسمعه من المذياع خلال النهار. دفتر الملا يوسف صار سجلا كبيرا، وسجلات متعددة، كانت الحرب تنمو في درج مكتبته الصغيرة، وكانت الأيام حبلى بمعارك لا حد لها. هو مثل شيخ عارف. بالضبط مثله. انتظر توقفها ولكنها لم تستجب. انتظر مثلما انتظر شيخ عارف لكن ملا يوسف كان أكثر صبرا منه، كان الملا نقياً، تقياً، أقرأ في شاربيه ولحيته البيضاء تاريخا بعيدا. ملامحه تذكرني بالصورة التي رايتها في كتاب التاريخ، صورة عمر المختار، كان مثله تماما. كنت لا أفرّق ما بين الرجلين ولا أجد اختلافا بين ملامحهما. كان الملا يوسف غواصا ماهراً، حدّثني عن أيام الغوص قائلا:

- كنت اغوص الى عمق البحر، بحثا عن المحار واللؤلؤ، ذات يوم وحينما كنت ابحث ما بين الصخور شاهدت مهدا صغيرا، أدهشني المهد، وأدهشني الطفل الذي فيه، مثل قطعة ذهب، يحرك يديه وقدميه، والاسماك الصغيرة تدور حوله كأنها تؤدي طقوسا ... تشبثت بالصخور وانا ادفع جسدي الى امام. رأيته، طفل المهد الذهبي. مددت له يدي في اللحظة التي ذعرت فيها الأسماك وتحركت الصخور وخرجت من تحتها حورية بأصداف مضيئة ووجه من نور. نفخت في وجهي، نفخت بقوة. فاخترق الماء اذني، هززت الحبل الذي يشدني من قدمي، سحبت الى سطح البوم ومنذاك فقدت السمع!

رواية سمعتها عن لسانه، ثم سمعتها من آخرين، لم يجر أي راو تعديلا أو إضافة لها، تكاد تكون الرواية الوحيدة التي احتفظت ببنائها دون زيادة او نقصان. ليست مثل رواية شيخ عارف التي تشظت الى مجموعة روايات كان آخرها ان شيخ عارف قد اختفى في شجرة سدر وسيخرج ذات يوم من الشجرة نفسها في اليوم نفسه الذي اختفى فيه، منهم من قال يوم الاثنين وآخر قال يوم الخميس.. وبعضهم راح يردد:

- ان من يستظل تحت السدرة فهو آمن. ومن يغتسل بوريقاتها لن يأكل دود الأرض من جسده شيئا، ومن أكل نبقها ما جاع أبداً.

مات ملا يوسف ولم تنته الحرب أيضا....

آخر صفحة من سجله الخامس تحمل تاريخ 1983/10/14

(13)

لم يزرنا أحمد الصالح طوال السنوات الماضية، حتى حين استقر بنا المطاف في بيوت. لم يزرنا أبداً على الرغم من انني تركت له رسالة في مقر الخلفيات لكنه لم يأت..

القصف يشتد على مدينة البصرة واخبار العمليات الحربية في الجبهات تملأ الإذاعات والصحف. معارك متلاحقة في بحيرة الأسماك وشرق البصرة وفي كشك البصري. كنت على يقين أن صاحبي سينجو لكن إحساسا ما يجعل صدري ضيقا. سالت عنه ثانية في المقر ذاته. في غرفة صغيرة وبين اكداس السجلات جلس نائب الضابط الذي راح يحدّق بي عبر زجاج نظارته السميك.. ثم قال:

- أنت اخوه...؟

- من اهله!

طوى السجل الذي امامه وأطلق زفرة جعلت فرائصي ترتعد ثم قال:

- إطمئن. المواقف تتغيّر باستمرار!

نهضت مقتربا منه وقلت:

- لا افهم.

قال:

- الموقف غير مستقر، لم أجد اسما له في قائمة الشهداء ولا الموجودين!

- مفقود...؟

- سنعرف فيما بعد.

نفحة من الذكريات اخترقت رأسي وحفزت دمعة أن تأخذ طريقها الى خدي. حاولت أن اقنع نفسي واكذّب الأوراق التي بسطها أمامي نائب الضابط.. رجل مثل احمد الصالح ان لم يكن شهيدا فلا يمكن ان يكون الا حيًّا، فهو أقرب الى الحياة منه الى الموت. غاب قبل ذلك ثم عاد، لا يمكن أن يسجل في الموقف مفقود!

في الليلة التالية حلمت به، جاءني على فرس مثل تلك التي رايتها مع شيخ عارف. لم يتحدث معي. نظر اليّ بعينين مبرقتين وغادر. وتكرر الحلم بعد ليلتين أخريين ولم يقل شيئاً.

لم أحدث احدا عن حلمي، حاولت أن أجد تفسيرا لذلك.. لكن فرس شيخ عارف راحت تؤرقني.. انتظرت أسبوعا وعدت الى مقر الخلفيات لعلي أجد خبرا عنه. استقبلني نائب الضابط نفسه، وبحفاوة أكثر مما استقبلني فيها في المرة الماضية. لم أستطع التخلص من قلقي وقبل أن أجلس قلت:

- هل هناك اخبار عن احمد الصالح؟

أشار نائب الضابط اليّ بالجلوس. جلست وانا انتظر منه جوابا، وكعادته راح يتصفح سجل المواقف اليومية.. رأيته مرة أو مرتين يختلس النظر اليّ من زاوية نظارته السميكة.. كررت عليه السؤال وهو ما زال يقلّب الأوراق. ورقة ورقة، ببطء حتى استفزني. آه لو يعلم هذا الرجل ما يدور بداخلي، انا مثل سمكة انغرزت في خياشيمها سنارة حديد، أتأوّه في داخلي بألم شديد.. دقائق معدودات وطوى نائب الضابط السجل كما فعل في تلك المرة وقال:

- للأسف. الموقف لم يتغيّر. صاحبك مفقودٌ!

- مفقود...؟ الى متى...؟

رفع نظارته السميكة بأصبعيه ووضعها امامه على المنضدة وقال:

- الى ان يتغيّر الموقف. وسيتقرر مصيره بعد انتهاء المجلس التحقيقي.

- وماذا بعد...؟

- هذا ما تقرره شهادة الشهود.

هذا يعني ان هناك شهودا، جنودا رأوه وسمعوه، ولكن من يدلّني على أولئك الشهود...؟ حاولت أن اعرف أسماءهم من نائب الضابط الا انه قال:

- هناك دائرة قانونية مختصة بذلك.

وسدت كل الأبواب التي توصلني الى صاحبي احمد الصالح.. وبرغم ذلك الا انني أجدني مقتنعا أن الأيام القادمة تخبئ في جعبتها ما يدلني عليه..

***

(14)

في الأيام التالية، عرفت اثنين من الشهود، كانا ضمن حضيرة أحمد الصالح، أحدهما فقد ساقه والآخر نجا من الموت بأعجوبة، كلاهما يعرف احمد الصالح، يعرفانه مثلي، مثلي تماما.. وربما حدثهم هو عني، فالسنوات التي قضاها بينهم كافية لأن يعرفا كل شيء عنه، وعن أصدقائه، ومدينته. وهذا ما كنت اظنه قد فعله صاحبي احمد الصالح.

في بيت ريفي يغفو بهدوء في حافة بستان كبير يقع في الجانب الشمالي من المدينة بعيدا عن مرمى القذائف والصواريخ، التقيت بأحدهما.. صابر العايش: شاب نحيل، ملتح، رأيته جالسا تحت فيء نخلة بدشداشته البيضاء، ثمة عكازان الى جانبه، جلست معه، وكنت أحدق في العينين اللتين رأتا احمد الصالح آخر مرة. ربما أرى صورته ملتصقة في الحدقتين.

قلت له:

- جئت أسألك عن احمد الصالح.

كمن تفجر في داخله حزن عظيم، ظل يحدق في عكازتيه ويتلمس موضع الساق التي بترت. قال:

- في ليلة كان فيها القصف شديدا، ينزل علينا كمطر أسود، احتمينا نحن أفراد الحضيرة في موضعين لم تكن النار بعيدة عنهما. سقطت قذيفة في الموضع المجاور وأخرى بالقرب من حافة موضعنا، شعرت بالساق وهي تطير مني في الهواء. لم ار ساعتها أحمد الصالح وجاسم حمزة اللذين يشاركانني

الموضع، كان الظلام يمنعنا من رؤية اصابعنا. لحظة ووجدتهما يخرجان من قاع الموضع. حملني احمد الصالح على ظهره.. بينما بقي جاسم يبحث في الموضع القريب عن احياء. وتحت وابل كثيف من القذائف سار بي صاحبك، كنت على ظهره ودمي يرسم مسارا متعرجا من ظهره الى الأرض. قذيفة أخرى سقطت بالقرب منا، سقط احمد الصالح ارضا وسقطت معه. لم أدر ما حصل بعد ذلك. ولم يرشدني أحد اليه.

صمت وهو يخفي دمعة عني، ثم قال:

- أنت اذن صاحبه الذي كثرما حدثني عنك. صاحبك بطل، شهم. ارجو ان يكون سالما!

لا اعتقد ان احمد الصالح يرضى بأن يموت بقذيفة عمياء طائشة. ولا في مكان بعيد عن مدينته، لقد قال لي ذات يوم:

- حتى لو راودني عزرائيل في آخر الدنيا سأطلب منه فرصة ان يميتني في الفاو.

اعتقد انه في اللحظة تلك كان يتذكر مدينته. ونازك وشباكها الخشبي. لا أنسى يوم قرأت عليه قصيدة للسياب (شباك وفيقة) قال لي:

- لو قدّر لي ان اكتب شعرا لكتبت قصيدة شباك نازك!

عدت من صابر العايش كئيبا بعد ان وضعني في طريقين متنافرتين، عدت كئيباً وأمامي فرصة البحث عن جاسم حمزة، الشاهد الآخر فقد يكون هو الخيط الآخر الذي يوصلني به.

التقيته في اليوم التالي لسقوط قذيفة في داره. لم يصب أحد بأذى ولم يخرج شيء من البيت ذا نفع! التقيته وكأني أقف امام صاحبي أحمد

الصالح، لقد اخذ منه طول قامته ومن لسانه لباقته.. أجبرته على الكلام بحذر شديد وتوسلت اليه ان لا ينسى شيئا قد يفيدني. قال:

- عرفته قبل شهر من الهجوم، التحقت باللواء ضمن الوجبات الجديدة. شعرت وأنا ألتقيه كأني أعرفه من قبل. من زمن طويل. صاحبك خال من العقد. كان يقول لي: (لا أخاف على شيء ولا من شيء) يأكل قليلا ويتحرك كثيرا، برغم مرحه الا أني اكتشفت أن في داخله حزناً كبيراً وجرحاً عميقاً. عرفت بعد ذلك أن حادثة والديه تركت في نفسه ذلك. يركض باتجاه الموت كي لا يعطيه فرصة لاقتناصه، هكذا كان يقول لي، يتحدث عن الحب بما لم يتحدث عنه مجنون ليلى. في ليلة الهجوم رأيت وجهه مشرقاً. لم يخف عنا الوشم المرسوم في ذراعه. بدا واضحا بحروفه القرمزية (نازك). لم نسأله عنها. لكننا التقطنا نتفاً من أحاديث سابقة له عن الفاو ونازك. رفع هذه المرة كم قميصه عن الوشم كأنه يعلن عن سر دفين. ومع اشتداد القصف، اختارت قذيفة الموضع الذي بجانبنا ثم تلتها أخرى سقطت بمحاذاة الموضع الذي كنا فيه: هو وصابر العايش وأنا. حمل صاحبك صابر بعد ان بترت ساقه بينما بقيت انا أتفقد الموضع الآخر. لم اره بعد ذلك. في ذلك الليل البهيم من الصعب أن تحدد مكانك.. ومن الصعب ان تجد من يحميك.

كان الملل يخبو كلما اقترب جاسم حمزة من ختام روايته بينما اليأس يأخذ طريقه اليّ.. يدبّ في جسدي مثل خدر طفيف. وقبل ان أغادره، قال لي جاسم حمزة:

- أن من يمتلك اشراقة وجه صاحبك أحمد الصالح لا يمكن ان يموت!

* * *

(15)

كل عام انتظر بارقة أمل أن يعود صاحبي، ذاب مثل فص ملح في الماء. انقطعت اخباره، لكن الأمل باقٍ في أن اراه من جديد. سيعود احمد الصالح ذات يوم، مثلما يعود الطير المهاجر الى عشه الأول. سيعود ما دامت صورة مدينته مرسومة في عينيه: بأهلها ونخلها وملحها وشطها الكبير وخليجها الواسع. بذكرياته فيها واحلامه وحبه الطاهر ولم يكن غيابه الا مرحلة تتفتح منها آفاق جديدة لحياة أخرى. لا يمكن ان يقنعني سطر صغير ما بين عدة أسطر في سجل الموقف اليومي أن عودته مستحيلة. سيخرج أحمد الصالح ثانية من نهر في الجنوب أو من كثبان الملح أو بساتين النخيل تاركاً طعمه في الرطب البرحي والبمبر والنبق ولونه في الحناء والعنبر ووجوه الأطفال وصوته في زقزقة العصافير وغناء الفواخت وهلاهل الأمهات ورائحته في الآس والورد وخبز التنور ورائحة الأرض، سيعود صاحبي أحمد الصالح حتماً مثلما عادت الفاو بوجه مشرق على أكف آلاف الشهداء وأرواحهم وسيكون طريقه الى الملح ابداً.

(البصرة آب 2002)

قراءة في رواية الطريق الى الملح

للمبدع عبد الكريم العامري

بقلم

نقوس المهدي/المغرب

مدخل لا بد منه:

تولد رواية " الطريق الى الملح" للأديب عبد الكريم العامري في النفس العديد من التداعيات الاليمة، وتحرك في اعماق النفس الكثير من الذكريات الدفينة.. هكذا وجدتني مشدودا بحبل سري بابطالها كأنهم أحبابي وأهلي.. الحب نفسه الذي اختزنته لسنوات متتالية لكاتبها عبد الكريم العامري. ولصديقي مضر حمد السعيد الفتى البغدادي والشاعر الطموح الذي افتقدته في أتون حرب الخليج الاولى.. لا هو من بين أسماء قوائم الشهداء ولا من عداد المفقودين.. ابتلعته الارض الى يومنا هذا.. والذي تعرفت من خلاله على روايات الحرب لـ" إيريك ماريا ريماك".. وادب الواقعية الاشتراكية عند مكسيم غوركي وخورخي أمادو، وتنظيرات انطونيو غرامشي.. وقرأت عن طريقه أشعار حسب الشيخ جعفر وسعدي يوسف.. وعرفني على تاريخ النضال الجماهيري في الخليج.. والمعارك العقائدية والفكرية المحتدمة بين صفوف الطلبة العراقيين.. والاغتيالات والاختطافات التي تطال المناضلين.. وقصيدته الحزينة "شهادة عن مناضل اغتيل ذات مساء عند مدخل البار العتيق".. وأوراقه التي بعثها إليّ من ساحة المعركة ووسمها بأوراق صفراء من زمن الحرب تحدث من خلالها عن ملابسات يومياته في الميدان ومعاناته وآماله العريضة الواسعة المتدفقة الرقراقة التي التهمتها الحرب اللعينة.. وتاريخ الحزب الشيوعي و"الرفيق فهد" وجريدة "الطريق" التي نشرت بها بعض الخربشات المبكرة.. وسلكت بعدها الطريق الشاق لـــ " أحمد الصالح " في

سبيل البحث عنهما فلم أعثر لصديقي مضر على أثر.. فيما دلّني على صديقي الآخر من غرناطة المبدع محسن الرملي..

قراءة في العتبة:

العنوان مفتاح تأويل النص.. هكذا يحيلنا عنوان الرواية المكون من جملة إسمية على الطريق وركوب الاهوال وتكبد المشاق من أجل البحث عن الزمن الضائع.. أي على الرحلة.. ذلك ان الرحلة كتابة في المدى، والكتابة رحلة على الورق. إذ "يخيل إليّ أن كل كتابة رحلة في الزمان والمكان (الفضاء). وقبل كل شيء هي رحلة في المساحة اللامتناهية لجغرافية الكلمات" بحد تعبير الناشر الفرنسي الشهير فرانسوا ماسبيرو. ومن جانب آخر على الملح حيث هناك شخص تقاسم معه الراوي الخبز والملح كما نقول في المتخيل الشعبي.. وهو بوابة تتدفق عبرها بشكل لامتناهي جملة من المتتاليات التي تتولد في رحم الغيب.. وتحيلنا على عالم روائي مؤثث بالاحتمال والتوجس والمفاجاة والشوق والحنين المعشعش في الحنايا والذكريات الحارقة والتاريخ الضمني لشخوص ينبضون أملا ورقة وبساطة.. الأم رمز الأرض، والجد رمز التاريخ العريق، ومعتوق الحداد الذي يحيل إسمه على العتق والتحرير، ونازك التي يرمز إسمها الى الرمح انظر لسان العرب ص 498، وما جاء في الحديث "ان عيسى يقتل الدجال بالنيزك".. وكل هذه المؤشرات الايقونية تكتسب دلالات تعجّ بالإرادة والإصرار على تحرير مدينة الصبا ومرتع الشباب.... وترمز في نفس الآن للحياة والأمل والإستمرارية.. وتحاول التأريخ بهذه المعطيات لثالوث الانسان

والمكان والزمان عبر عودة الراوي بعد زمن طويل من الغياب القسري الى كنف مدينته المحررة العابقة بجمال مدينة "الفـــــاو". والتي عمّدتها دماء 52848 شهيد عدا العديد من الأسرى والمفقودين والمعطوبين.. وهذه إحصاءات رسمية تختفي وراء أكمتها الوجه الحقيقي والسافر للأنظمة السنبدة.. والصورة البشعة للحروب، وما تجره من ويلات ومآسٍ من ترميل النساء وتشريد الأطفال وتشتيت العوائل، وتكبيد البلد العديد من الخسائر الإقتصادية والسياسية الفادحة.. على هذه الصورة تبتدئ الرواية وتبدو المدينة بعد ان يعود اليها البطل وهي محررة من المحتل وفي زمن "بدأت الأرض تخضر... والأشجار تستعيد عافيتها" ص9.. بعد ان دمرت وحطمت الحرب كل شئ فيها، واقتلعت رؤوس النخيل... وعبر الاستعانة بالتذكر والاسترجاع "الفلاش باك" يلملم الراوي شتات ذاكرة منهكة وضبابية لرصد حياة "احمد الصالح"، وأيام الصبا والشيطنة والعفرتة والجنون والحب والعبقرية والجندية.. مسلطا كاميرته على تحولات المكان وهواجس البطل وجزئيات حياته شبه الشطارية.. ذكريات جارحة تسربت عبر نافذة السيارة محمولة على هودج الريح الشرقية الملتهبة والحارقة دافعة الراوي الى هوة الماضي السحيقة ص11.. وركوب قطار الذكريات واستحضار سيرة مدينة عزيزة في سبيل البحث عن أحمد الصالح مسلحا بالأمل والرغبة الاكيدة وصورة الصاحب ومفتاح صندوق الذكريات الجميلة والعديد من الإشارات والمؤشرات الدقيقة.. ذلك لأن مصير الرواية أية رواية هو بحث في بعض التفاصيل الصغيرة لنستدل عن طريقها على ما هو أهم.. ذلك أن "ميخائيل باختين" يعتبر الرواية جنينا، لم يكتمل بعد، كجنس أدبي قائم بذاته؟ طبعا ليس

بالمعنى التصغيري أو التحقيري؟ على العكس من (الفن الْملحمي) ...

المكان في الطريق الى الملح:

"بإمكان كاتب أن يُهدي مدينةً شُهرةً عالميّة من خلال كتاب"هكذا تقول احلام مستغانمي.. وفي أقصى الحالات الإجرائية تتحول العديد من الأمكنة الروائية في وجداننا الى أماكن حميمية، والكثير من الشخوص الى أصدقاء ملحميين حميمين من حيث لا نعلم ولا نحتسب كأنما تربطنا بهم صلة قرابة قوية.. ونعشق عن طريقهم تلك الأعمال بعوالمها وأمكنتها وأفضيتها الصغيرة المحدودة المضغوطة بين دفتي الورق والموشومة بالحبر.. والتي تغدو افتراضيا أكبر من حجمها في الواقع.. وننسج معهم علاقات ضمنية أقرب الى الحميمية وأقوى من الخيال.. من منا لم تشده قاهرة نجيب محفوظ، واسكندرون حنا مينا، واسكندرية إدوار الخراط ولورنس داريل، وبصرياثا محمد خضير، وسومر حسب الشيخ جعفر، وطنجة محمد شكري وبول بولز، ودبلن جيمس جويس، وبيونس آيرس خورخي بورخيس، وباريس بودلير، ولشبونة فرناندو بيسوا، وبراغ كافكا، واسطنبول باورهان باموك .. ويتجلى ذلك الارتباط عن طريقة حديثهم الإسطوري عنها في كل حين كرد فعل لتاثيرات بصمها ذلك المكان على أرواحهم، وأصبحت قطعة من حياتهم.. يكتب كافكا في إحدى رسائله لأحد أصدقائه: "لن تخلي براغ سبيلنا، لهذه الأم الصغيرة مخالب، ينبغي الإذعان لها ..." .

هكذا تخلق تلك الامكنة والاشياء الحميمية في نفوسنا ذلك الفضول الآسر لاقتفاء آثارها خارج الحيز الورقي وتدفعنا لمتابعة تطورات الأحداث في رواية "الطريق الى الملح" عبر تتبع معاناة الأنا والآخر.. "الانا" الراوي الذي ليس حتما الكاتب الذي يستلهم على مستويات عدة مرجعية السيرة الذاتية في تشكيل الخطاب الروائي.. و"الآخر" الذي يمثله أحمد الصالح البطل الإيجابي الذي يرمز في بحثه الى الأمل واللقاء والمحبة والبساطة وهلم جرا من تلك الأوصاف النبيلة النابعة من أعماق الارض الطيبة المحتضنة لآمال وأحلام الناس الطيبين..

رؤى حول الرواية:

تبتدئ الرواية في منطقة تماس بين زمنين يمتزج عبرهما الماضي بالحاضر الذي يتولد من رحمه المستقبل.. زمن ماض يستدعي التاريخ والمعالم والذكريات والرؤى والأطياف والأخيلة.. وزمن حاضر يستحضر الرغبة في اللقاء ويستنطق السجلات ويتحرى فيهم عن مصير أحمد الصالح في دواليب الإدارات والدوائر الحكومية وعبر مساءلة رفاق السلاح .. والمستقبل الباسم لكن الضبابي في ظل الخطر الداهم الذي يتهدد البلد ..

الطريق الى الملح من نوع السهل الممتنع ببساطة توليفتها وهرمية نسقها المعماري .. ومؤثثة بالشعر والنوستالجيا والشوق والتشويق واللهفة والاكتشاف لتتبع مجرى نهر الرواية وتتبع مساره ليمضي بنا صعدا لاهثين لمعرفة النهاية الحتمية للأحداث.. واقتناص

المصير الغامض لكن المشرق والايجابي للبطل الذي ينبعث من جديد عبر الطفل رمز التجدد والعطاء والإستمرارية والتجدد، وعبر الحكاية اللامتناهية، وإغراء القارئ وإيهامه باكتشاف الأوراق المرتقبة التي ستنطلق في الفضاء الكبير كسرب حمام "ص112... والتي وعد بها – وهو من سيقترح ذلك بلسانه– في الجزء القادم من الرواية، كما يوحي بذلك آلبرتو مانغويل في أنه "يعرض أمام القارئ كنزا من الروايات في حالة جنينية، وبذورا لحكايات، ليست في حاجة لتنمو زيادة حتى تمتعنا وتدهشنا." وآخذا بقول أحمد فؤاد نجم "عشقي للكلام غالب سكوتي وكرهي للسكات جالب شقاي".

خلاصة:

عموما الطريق الى الملح جاءت لتعزز المنجز الإبداعي للاستاذ عبد الكريم العامري ولعل أول ارتسام نخرج به من أول قراءة لها انها رواية ناضجة بكل المعايير السردية بالرغم من انها باكورة شاعر راكم تجارب ناضجة ومهمة في الكتابة الشعرية والمسرحية، وتتعالق فيها بغبطة الكتابة الروائية بالتجربة الشعرية الناضجة، ذلك أنه حسب ديكارت "قد يبدو من المدهش العثور على أفكار عميقة في كتابات الشعراء وليس في كتابات الفلاسفة. والسبب هو أن الشعراء يكتبون تحت تأثير حماسهم وقوة تخيلهم: ذلك أنه توجد فينا بذرات العلم مثلما توجد شرارات النار في الحجر. الفلاسفة يستخرجونها بالبرهان العقلي أما الشعراء فتتقشع لديهم بفعل تخيلهم وتغدو أكثر لمعانا"..

بهذا السلاح وبتلك الرؤى آثر الشاعر والمسرحي والصحافي عبد الكريم العامري ركوب غمار الكتابة الروائية ببراعة فاتنة عبر الإسلوب الشاعري الذي يشيع داخل النص فيبعث بين ثناياه جمالية وبهاء ورقة، ولغة شفيفة جذابة تتوخى الإقتصاد في الكلام عبر الجمل القصيرة التي تتوغل عميقا داخل أعماق الأبطال، وتؤرخ لمرحلة حرجة من تاريخ العراق الحالك الموشوم بالإستبداد والجبروت والتسلط والإحباط والإقصاء الممنهج للإنسان.. التاريخ المليء بالبطولات الوهمية والانكسارات والحافل بالأشعار والمفعم بأخبار الابطال الحقيقيين في الخليج واهب اللؤلؤ والمحار والردى.. وعبر معانقة الأحزان الدفينة في عراق ما مر عام والا فيه جوع وظلم وتشييء للكائن، ومعانقة الأمل في النصر والتحول والإصرار على مواصلة الحياة برغم كل يتعرض له البلد من مكائد وويلات ضحيتها الأولى والرئيسة المواطن العراقي والقادمة من الغرب أساسا تمثلا بقول أبي الطيب:

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل

ترى هل نقرأ جزءا قادما تقول فيه الأم، وهي رمز العطاء والولادة المستمرة والخصوبة، انه من الغرب جاءت المصائب" ص4..

كتب للكاتب:

1- لا أحد قبل الأوان (شعر) 1998
2- الطريق الى الملح (رواية) 2001
3- مخابئ (شعر) 2000
4- كل جسدي مشاع (شعر) 2016
5- غزو (رواية) ط1- 2015 ط2- 2019
6- عنبر سعيد (رواية) ط1-2017 ط2- 2019
7- مسرحيات (مجموعة مسرحيات) 2019
8- راشد وبحيرة الحروف الجميلة (رواية للاطفال) 2017
9- ما لم يقله النص (مسرحيات) 2023

قيد الطباعة:

1- ضفة أخرى مسرحيات
2- في كتابة النص المسرحي دراسات
3- حقيبة الجنوب شعر